الكتاتيب
نشأتها وأنماطها
وأثرها في تَعلُّم وتَعليم القرآن الكريم
الكتاتيب في مصر أنموذجًا

د. مبروك بهي الدين رمضان الدعدر

السيرة الذاتية

الاسم: مبروك بهي الدين رمضان الدعدر.
مكان الميلاد وتاريخه: ٦/ ٩/ ١٩٥٩م، البرلس، كفر الشيخ، مصر.
المؤهل العلمي: دكتوراة.
مكان الحصول عليه وتاريخه: ويست كلايتون ـ كولمبيا ـ الولايات المتحدة الأمريكية، ١٤٢٧هـ.
الدرجة العلمية: أستاذ مشارك.
التخصص العلمي العام: اللغة العربية.
التخصص العلمي الدقيق: البيان في القرآن الكريم.
العمل الحالي: عضو كرسي الأمير سلطان للدراسات الإسلامية المعاصرة ـ جامعة الملك سعود ـ كلية التربية ـ قسم الدراسات الإسلامية.

*** الإنتاج العلمي:**

*** الكتب:**

١ ـ وسطية الإسلام في معالجة الضغوط النفسية. (مطبوع).
٢ ـ الانعكاسات الإعلامية على هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ دراسة ميدانية ـ فريق بحثي (مطبوع).
٣ ـ نحو مجتمع القيم خصائصها وآثارها (مطبوع).

*** البحوث:**

١ ـ أبحاث في موسوعة التفسير الموضوعي (الأبوة ـ البنوة ـ المحبة ـ الألوان في القرآن الكريم).
٢ ـ الشباب والهوية وتأثيرها على السلوك ـ دراسة لكرسي الحسبة جامعة الملك عبد العزيز ـ جدة.
٣ ـ أبحاث في موسوعة حقوق المرأة في الإسلام.

*** المشاركة في المؤتمرات والندوات:**

١ ـ الدور الإعلامي للمؤسسات الخيرية ـ قسطنطينة الجزائر.
٢ ـ تطبيقات السنة في الدعوة ـ ماليزيا.
٣ ـ المراكز الصيفية ودورها في تعزيز الأمن الفكري ـ مؤتمر الأمن الفكري ـ الرياض.

*** العنوان:** الرياض ـ السعودية.
*** البريد:** جامعة الملك سعود ـ كلية التربية ـ قسم الدراسات الإسلامية.
*** الهاتف:** ٠٥٠٣٤٢٢٨٠٠
*** الإيميل:** dr_mabrouk07@hotmail.com

ملخص البحث

«الكتاتيب» مؤسسة تعليمية (أولية) تخرج في جنباتها كثير من الأجيال، الذين حفظوا القرآن الكريم، وتعلموا قواعد القراءة والكتابة، وتربوا على المبادئ والأخلاق الحميدة، ثم أصبحوا بعد ذلك قادة، ومنابر، وأصحاب فكر في المجتمع يشار إليهم بالبنان في قراءة القرآن بجميع رواياته، وفي مجالات العلوم المختلفة.

ويعرض البحث نشأة الكُتَّاب عند المسلمين منذ العهود الأولى للإسلام، وانتشاره مع انتشار الإسلام في مختلف البلدان، وكونه لفترة طويلة كان المركز الرئيس في العالم الإسلامي لتعليم الصغار، وتمتعه بمكانة كبيرة الأهمية في الحياة الإسلامية، كما يستعرض (الكُتَّاب في مصر أنموذجًا)، واحتوى على مقدمة تشمل التعريف بالكتاتيب لغة واصطلاحًا، وأهمية الكتاتيب ونشأتها، ثم تناول أنواع الكتاتيب، وأماكنها، وأثاثها، وتكوينها، وشروط المعلم (الشيخ) أو (سيدنا ـ كما كان يطلق عليه ـ ومساعده «العريف») فيها، ونوع المتعلمين فيها، ومنه تعليم البنات فيها، وتدرج المتعلم في مراحله، ومنهج الدراسة فيها، والتنظيم الإداري، والحياة الاجتماعية في الكُتَّاب، والرعاية الصحية، وتمويلها ومصادر مصروفاتها، ثم بعض أهم نتائجها وآثارها وتأثيرها، مع بيان أهم مستخلصات الموضوع وتوصياته، ومن ذلك العناية بالمتعلمين، فهم الركيزة التي تقوم عليها التعليمية، المحافظة على تلقي الرسم والكتابة القرآنية من طرف المعلم وتصحيحها والحفاظ عليها وذلك لاكتساب الخط، وتعلم الكتابة، وأن لا يهمل ما عادته الإهمال فيما يخص حسن ترتيل القرآن، وتعليم قواعد التجويد، والسعي لإدخال موضوع تدبر المحفوظ وتفسيره، إذ لا يعقل

أن يتخرج شاب أو حافظ لكتاب الله حفظًا متقنًا دون أن يكون له علم ببعض معاني آياته.

ومن أبرز توصياته.. الاستفادة من منهج الكتاب قديمًا في التدرج في التعليم وهو منهج فريد تميزت به شريعة الرحمن، وخصوصًا تحفيظ القرآن، الذي يراعي معرفة مدارك الطلاب وقوة حفظهم ومدى استيعابهم، وتبنى الحلقات على ذلك، ومنها أهمية العناية بين التعليم والتطبيق داخل هذه المحاضن المؤثرة، وفي آثارها الإيجابية، وعلاج قلة الاكتراث بالشعائر التعبدية والسلوكية، الاستفادة من تنوع أساليب وطرائق التدريس في الكُتَّاب، وما زال التربويون في العصر الحديث ينهلون من فوائدها، والنظر بعين الشريعة في موضوع التربية العقابية وأن زمن الضرب قد ولى، واقتحم عليه المجال زمن الحوار والإفهام والتواصل بشتى أنواعه.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

لا ينكر أحد دور «الكتاتيب» كمؤسسة تعليمية (أولية) تخرج في جنباتها كثير من الأجيال، الذين حفظوا القرآن الكريم، وتعلموا قواعد القراءة والكتابة، وتربوا على المبادئ والأخلاق الحميدة، ثم أصبحوا بعد ذلك قادة، ومنابر، وأصحاب فكر في المجتمع يشار إليهم بالبنان في مختلف التخصصات في قراءة القرآن بجميع رواياته، وفي مجالات العلوم المختلفة.

لقد كان الكُتَّاب القرآني ولا يزال من الذكريات المميّزة في وجدان الكثيرين، وذا نكهة خاصّة، فمن هؤلاء من هو اليوم إمّا سياسيّ، أو إعلاميّ، أو مثقّف، أو يعمل في قطاع خاصّ أو عامّ، قضوا من أعمارهم أوقاتًا طويلة في «الكتَّاب القرآني»، ويعبّرون في كلام لهم عن تلك المرحلة الّتي لا تُنسى من ذاكرتهم الجماعيّة، رغم أنماط العيش والتّعليم الحديثة. وإن كانت هذه الكتاتيب الّتي قامت على تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم اللّغة العربيّة، خفّ تأثيرها ووجودها اليوم في ظلّ النظام التعليمي الجديد.

كما أن هناك شيوخًا تاريخيين برزوا ومازالت أسماؤهم راسخة في أذهان طلابهم، كما رسخت تعليماتهم، وعلمهم، وطرائق تدريسهم في قلوبهم، وظهرت في سلوكهم.

ويأتي تقديم هذا الموضوع ضمن المحور الثالث: «البرامج التعليمية ومناهج التعليم (غير الأكاديمية) في المساجد والمحاضر والمراكز والدورات العلمية وغيرها من المؤسسات غير الأكاديمية»، للمؤتمر الثاني لتطوير الدراسات القرآنية.

والذي يقيمه كرسي القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود بالرياض، بالتعاون مع مركز «تفسير» وذلك خلال الفترة من ١٠ ـ ١٤/ ٥/ ١٤٣٦هـ.

وسوف يعرض الموضوع نشأة الكتَّاب عند المسلمين منذ العهود الأولى للإسلام، وانتشاره مع انتشار الإسلام في مختلف البلدان، وكونه لفترة طويلة كان المركز الرئيس في العالم الإسلامي لتعليم الصغار، وتمتعه بمكانة كبيرة الأهمية في الحياة الإسلامية، كما يستعرض (الكتَّاب في مصر أنموذجًا).

ويتناول الموضوع من خلال تجربة عملية، وواقع عايشته وتدرجت في مراحله قبل وخلال وبعد التعليم النظامي، وذلك في مقدمة تشمل التعريف بالكتاتيب لغة واصطلاحًا، وأهميتها ونشأتها، كما يتناول البحث أنواع الكتاتيب، وأماكنها، وأثاثها، وشروط المعلم (الشيخ) أو (سيدنا ـ كما كان يطلق عليه ـ ومساعده «العريف») فيها، ونوع المتعلمين فيها، وتدرج المتعلم في مراحله، ثم بيان أثاثها وتكوينها،

ومنهج الدراسة فيها، والتنظيم الإداري، وتعليم البنات فيها، والحياة الاجتماعية في الكتَّاب والرعاية الصحية، وتمويلها ومصادر مصروفاتها، ثم بعض نتائجها وآثارها وفوائدها، ثم أهم مستخلصات الموضوع وتوصياته.

والله تعالى نسأل التوفيق والرشاد..

أولًا: تعريف الكتَّاب لغةً واصطلاحًا:

(١) **تعريف الكتَّاب لغة**: الكتَّاب بضم الكاف وتشديد التاء: موضع تعليم الكتاب، والجمع الكتاتيب[(١)]، هي: جمع كتاب، وهو: مكان للتعليم الأساسي، كان يقام (غالبًا) بجوار المسجد، لتعليم القراءة والكتابة والقرآن الكريم، وشيء من علوم الشريعة والعربية، ومبادئ الحساب[(٢)].

وفي لسان العرب: «وهي موضوع تعليم الكتاب»[(٣)]، بينما في الكامل: «المكتب موضع التعليم، والمكتب المعلم، والكتَّاب الصبيان، قال: ومن جعل الموضع الكتَّاب فقد أخطأ»[(٤)].

واستخدم «آداب المعلمين» كلمة «مكتب» عوض لفظة «كُتَّاب»[(٥)].

---

(١) انظر: آداب المعلمين. لابن سحنون، ص.٦٤.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مادة كتب، ١/ ٤٥.
(٣) انظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (كتب) ٣/ ١٢٩.
(٤) انظر: الكامل، للمبرد، ٤/ ٧٨.
(٥) انظر: آداب المعلمين، لابن سحنون، ١/ ٢٩.

ويطلق عليها عند أهل السودان «الخلاوي»، وعند أهل الصومال «ملعمة» أو «دكسي»، وعند أهل المغرب وموريتانيا «المحاضر»[(١)].

(٢) **تعريف الكتَّاب اصطلاحًا**: الكتاتيب (جمع كُتَّاب بضم الكاف وتشديد التاء) هي مدرسة القرآن ومعلمة الأجيال، كانت ولا تزال من أفضل وأهم المؤسسات التعليمية التي عنيت بتعليم وتحفيظ القرآن الكريم عبر أجيال متوالية، حافظت على اللغة العربية واستقامة اللسان العربي، وكانت بمثابة الدروع التي حافظت على تراث الأمة في مواجهة مدارس الإرساليات التي غزت عالمنا العربي منذ بدايات القرن التاسع عشر[(٢)].

إذًا الكتاتيب هي مراكز صغيرة نسبيًّا، غالبًا ما تتضمن حجرة أو حجرتين أو ساحة وسط بيت، أو ما شابهها، مهمتها الأساسية تتمثل في تحفيظ وتعليم القرآن الكريم للصغار، أو للكبار ـ أحيانًا ـ وقد تكون ملحقة بمسجد الحي.

ثانيًا: لماذا الكتاتيب؟

تأتي أهمية الكتاتيب دون غيرها من المؤسسات التعليمية (غير الأكاديمية) الأخرى في تعليم القرآن الكريم لعدة أسباب منها:

١ ـ كونها قائمة على تحفيظ القرآن الكريم بشكل جماعي يساعد على سرعة الحفظ والاستيعاب.

---

(١) انظر: من روائع حضارتنا، لمصطفى السباعي، ص١٢٩.
(٢) انظر: الكتاتيب، د. سيد محروس، مجلة الأزهر، ١٣٥١/ رجب/ ١٤٢٦هـ.

٢ ـ كانت الكتاتيب وما زالت الأداة التعليمية الرئيسة التي ينتقل بها العلم الديني وبالذات القرآن الكريم من جيل إلى جيل، كما كانت الأداة التي تشع منها قاعدة التنوير الديني وحفظ القرآن ونشره على مدى عصور طويلة.

٣ ـ وهي كذلك الأداة التي أسست قاعدة من المتعلمين الذين استطاعوا بعد ذلك بسهولة تعميق دراستهم الدينية وإتقان شتى فروع العلوم الإسلامية.

٤ ـ كما أن الكتاتيب كانت هي النظام التعليمي المناسب والملائم لاحتياجات المجتمع المتنوعة ـ قبل التعليم الرسمي ـ بحيث كانت تندمج بشكل طبيعي في نشاطات وحياة المجتمع الصغير اليومية، سواء في القرية أو في الحضر.

٥ ـ كما كانت الكتاتيب نظامًا تعليميًّا مجانيًّا لا يكلف المجتمع أية أعباء للدراسة فوق أنها تستمد تكاليفها المادية إما من نظام الأوقاف أو من التبرعات البسيطة والجهود التطوعية للمجتمع.

٦ ـ كانت هذه الكتاتيب هي النظام التعليمي الأمثل، على الأقل من ناحية التعليم الأساسي والأولي.

٧ ـ ولا يعني هذا أن فائدة الكتاتيب قد انعدمت في الزمن الحاضر، ذلك لأنها وبالذات من ناحية تعليم وتحفيظ القرآن، والأحاديث النبوية، والقراءة، والكتابة، والقيم الاجتماعية والدينية الأساسية، فهي منظومة ضرورية في حياة المجتمع المعاصر، ولا يمكن القول مثلًا: أن نظام رياض الأطفال، أو السنوات الأولى من التعليم

الأساسي يمكن أن تحل محل الكتاتيب، لأن هذه الأنظمة الحديثة لا تتمتع ـ في الغالب ـ بنظام الكتاتيب في التعليم المباشر وفي إتقان الجوانب الدينية[١].

ويؤكد علماء التربية أن الدراسات العلمية الحديثة تؤكد أن حفظ القرآن الكريم في الصغر يقوي الذاكرة، ويضمن للأبناء النجاح والتفوق في الكبر، ويحفظ اللغة العربية من الاندثار، وهو وقاية من الأمراض النفسية.

ويؤكدون على: «أن الدور المتخصصة في تحفيظ القرآن الكريم «الكتاتيب» لعبت دورًا متميزًا في تكوين الخلفية القرآنية والثقافية والإسلامية لدى أبناء المجتمع الإسلامي لقرون عديدة، وليتحقق بذلك حفظ الله تعالى للقرآن الكريم».

وأضافوا: «إن الكتاتيب من أهم المنشآت التعليمية والاجتماعية والتربوية لأطفال المسلمين، وحققت أهدافًا كثيرة ممثلة في غرس الروح الإسلامية، وتنميتها في قلوب الصغار، من خلال حفظ القرآن الكريم وفهمه، لذلك حرص الآباء على أن يرسلوا أبناءهم إلى الكتاتيب المنتشرة في جميع المناطق رغبةً منهم في تربية أبنائهم وتعليمهم، وترسيخ قواعد الإسلام لديهم.

وأشارت الدراسات إلى أهمية البدء في دفع النشء في سن مبكرة

---

(١) انظر: كيف نهتم بالقرآن، د. محمد يحيى، كلية القرآن، طنطا، مجلة الدعوة، العدد ١٤١٩.

إلى حلقات ومدارس تحفيظ القرآن الكريم نظرًا لسهولة الحفظ في هذا السن والقدرة على الاستيعاب السريع والاسترجاع[١].

وعبر عنها الدكتور يحي الغوثاني[٢]: «أن الطفل إذا حفظ القرآن منذ صغره اختلط القرآن بلحمه ودمه»[٣].

ثالثًا: الكتاتيب النشأة والتطور:

انطلق العمل بفكرة إنشاء الكتاتيب في وقت مبكِّر في تاريخ الإسلام، وذلك في السنة الثانية من الهجرة النبوية ونشوء الدولة الإسلامية، وهذا ما توضحه الرواية المشهورة التي فيها: أن النبي ﷺ جعل فداء بعض أسرى بدر ممن لا مال لهم، أن يعلِّم الواحد منهم عشرةً من الغلمان الكتابة فيُخلَّى سبيلُه، فكان ممن تعلَّم منهم زيد بن ثابت، وأضاف ابن كثير: «أن غلامًا من هؤلاء المتعلِّمين جاء إلى أمه يبكي، فقالت له: ما شأنك؟ فقال: ضربني معلِّمي»[٤].

هذا، ولم يقتصر هذا التعليم الابتدائي الأساسي في الكتاتيب على

---

(١) انظر: دراسة التعلم في الصغر، للدكتور عبدالباسط متولي أستاذ الصحة النفسية بجامعة الزقازيق، مجلة الجامعة، ٢٠١١م.

(٢) د. يحيى بن عبد الرزاق الغوثاني، ولد سنة ١٣٨٣هـ في سوريا، وأحد المتميزين في الإقراء بالمسجد النبوي، وأحد أعضاء لجنة تصحيح المصحف الشريف، وقرأ عليه كبار القراء والحفاظ. انظر: قراء المدينة، ١/ ٢٧١.

(٣) طرق إبداعية في حفظ القرآن، د. يحي الغوثاني، محاضرة مسجلة على شريط ينتجه «المركز الإسلامي العالمي للإنتاج والتوزيع»، بني ياس، أبو ظبي.

(٤) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير، ٣/ ٣٢٨، التراتيب الإدارية، للكتاني ١/ ٤٨ ـ ٤٩، وأضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، ٩/ ٢٠.

الغلمان الصغار، بل اتسعت هذه الفكرة لتشمل الكبار من الرجال الأميين، ويدل على ذلك ما روي أن النبي ﷺ أمر أن يعلم الناس الكتابة بالمدينة، وكان عبد الله بن سعيد بن العاص (٦٣هـ)[١] كاتبًا محسنًا[٢].

ويؤكد هذا ما قاله عبادة بن الصامت (٣٤هـ)[٣] «علَّمت ناسًا من أهل الصفة الكتابة والقرآن»[٤].

وفي هذه الصور من التعليم الأساسي للأميين الكبار يصدق قول البخاري (٢٥٦هـ)[٥]: (في كبِر سنهم)[٦].

---

(١) هو الصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٣ هـ) كان من أكثر الصحابة رواية للحديث الشريف وكاتبًا له فهو صاحب صحيفة، قد جمع فيها الكثير من أحاديث الرسول بعد أن استأذن النبي في أن يكتب عنه فأذن له، قال أبو هريرة: ليس أحد من أصحاب الرسول أكثر حديثًا عن الرسول مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب وكنت لا أكتب.

(٢) انظر: أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، ٩/ ١٩، التراتيب الإدارية، للكتاني ٢/ ٤٨.

(٣) عبَادَةَ بنَ الصَّامِتِ بن قيس بن أصرم بن فهر بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرجي الأنصاري(٣٤هـ. كنيته أبو الوليد. روي حوالي مائة وواحد وثمانون حديثًا. شهد بيعة العقبة الأولى والثانية، وكان نقيبًا علي قوافل بني عوف بن الخزرج، وآخى رسول الله بينه وبين أبي مرثد الغنوي، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله، واستعمله النبي على بعض الصدقات.

(٤) أخرجه أبو داوود، ٢/ ٢٣٧ ـ ٣٤١٦، وابن ماجه، ٢/ ٧٣٠ ـ ١٧٦٤، وصححه الألباني. في صحيح الجامع برقم ٢٩٦٤.

(٥) محمد بن إسماعيل البخاري من أهم علماء الحديث عند أهل السنة والجماعة، (١٩٤ ـ ٢٥٦هـ)، صاحب كتاب الجامع الصحيح الذي يعتبر أوثق الكتب الستة الصحاح، والذي أجمع علماء أهل السنة والجماعة أنه أصح الكتب بعد القرآن الكريم.

(٦) أخرجه البخاري كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، ١/ ٢٥ ـ ٧٣.

وذكر الكتاني (١٣٨٢هـ)[١]: (أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يسلمون شيوخًا وكهولًا وأحداثًا، وكانوا يتعلمون العلم والقرآن والسنن)[٢].

كما استمر العمل في زمن عمر (٢٣هـ) لتعليم الأميين الكبار، ويدل على هذا أن عمر جعل في المدينة رجالًا يفحصون المارة، فمن وجدوه غير متعلِّم أخذوه إلى الكتَّاب[٣].

واستمر تقدم المسلمين في طريقة التعليم حتى وصف ابن جبير الأندلسي (٦١٤هـ)[٤] في رحلته، مدى التقدم المنهجي الذي وصل إليه تعليم الصبيان، فقال: «وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويُعلَّمون الخط في الأشعار وغيرها؛ تنزيهًا لكِتَاب الله تعالى عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو، وقد يكون في أكثر البلاد الملقِّن على حدة، والمُكَتِّب على حدة، فينفصل من التلقين التكتيب، لهم في ذلك سيرة حسنة، ولذلك ما يتأتّى لهم حسن الخط؛

---

(١) عبد الحي الكتاني، (١٣٠٢ ـ ١٣٨٢) محدِّث ومسنِد ومؤرِّخ مغربي وانقطع للتدريس في القرويين، وسعَى في تطويره، ودرَّس في الأزهر، ودرَّس الحديث في الحرمين كما درَّس في الأقْصَى وفي الجامع الأُموي، وانتُخب عضوًا في مجمع اللغة العربية بدمشق ودرَّس في السوربون. واستقرَّ في فرنسا، وتُوفِّي في مدينة نيس.

(٢) انظر: التراتيب الإدارية، للكتاني ٢/ ٢٣٤.

(٣) انظر: التراتيب الإدارية، للكتاني ٢/ ٢٩٤، التربية والتعليم في الأندلس، لإبراهيم علي العكش ص١٦٠.

(٤) ابن جبير: هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (٥٤٠ ـ ٦١٤هـ) رحّالة أديب، زار المشرق ثلاث مرات، ألّف في إحداها كتابه «رحلة ابن جبير». ولد في بلنسية، ومات بالإسكندرية. انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٣١٩، ٣٢٠.

لأن المعلم له لا يشتغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم، والصبي في التعلُّم كذلك، ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوه»[(١)].

ولقد عرف المسلمون نظام الفصل في المواد، وجعلوا لكل مادة دراسية معلمًا متخصصًا فيها، بل اهتم المشارقة بتحسين خطوط أبنائهم، وهذا ما انتبه إليه ابن جبير (٦١٤هـ)، «وجعله من أهم ما يميِّز مؤسسة التعليم في المشرق الإسلامي»[(٢)].

وقد ظل نظام تعليم الأطفال في المشرق ينتهج ذات النهج الذي أخبر به ابن جبير (٦١٤هـ) في العام ٥٨٠هـ، فقد وجدنا ابن بطوطة (٧٧٩هـ)[(٣)] في رحلته الشهيرة، يُخبر عما أخبر به ابن جبير (٦١٤هـ) من قبله بما يزيد على مائة وخمسين عامًا، فقال عن معلمي المسجد الأموي في دمشق: «وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله، يستندُ كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد يُلقِّن الصبيان ويُقرِئُهُم، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهًا لكتاب الله تعالى، وإنما يقرءون القرآن تلقينًا، ومُعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك جادَ خطُّه؛ لأن المعلِّم للخط لا يُعلِّم غيره»[(٤)]، ومما يُلاحظ أن الأطفال كانوا

---

(١) انظر: رحلة ابن جبير، ابن جبير: ص٢٤٥.

(٢) انظر: المرجع السابق.

(٣) انظر: ابن بطوطة: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي (٧٠٣ ـ ٧٧٩هـ) رحّالة، مؤرخ. ولد ونشأ بغرناطة، وطاف بلادًا كثيرة، وتوفي في مراكش. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٣٥.

(٤) انظر: رحلة ابن بطوطة، ابن بطوطة: ص٨٧.

يتعلمون في المساجد القرآن الكريم، ثم ينتقلون من بعده إلى دراسة التكتيب والخط؛ للتعلم على يد المُكتِّب صحيحَ القراءة والكتابة، وكان المسلمون يهتمون بالكتاتيب ووصل الأمر أن كُتّاب الضحاك بن مزاحم عام ١٠٥ هجري كان يضم نحو ثلاثة آلاف طالب[١].

وتورد المصادر التاريخية أن ظاهرة انتشار الكتاتيب قد استمرت على مر العصور في شتى أنحاء العالم الإسلامي فعلى سبيل المثال: فقد أحصى ابن حوقل (٣٦٧هـ)[٢] في جزيرة صقلية ما يقرب من ثلاثمائة كُتّاب، كان مؤدبوها يحظون باحترامٍ وافر، كما لاحظ الرحالة ابن جبير (٦١٤هـ) وجود العديد منها في كلٍ من القاهرة ودمشق، فالقاهرة كان بها مائتان وخمسة وأربعون كتابًا إبَّان الحملة الفرنسية ثم أخذت في التناقص حتى صارت مائتين في أيام علي مبارك.

وفي ذلك يذكر ابن خلدون (٨٠٨هـ)[٣]: اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في أمصارهم لما يسبق به إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائد من آياتِ القرآن وبعض فنون الأحاديث[٤].

---

(١) انظر: التعليم القومي والشخصية الوطنية، رابح، تركي، ص ٢٣.

(٢) محمد أبو القاسم بن حوقل (٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) ولد في نصيبين في شمال شرق الجزيرة الفراتية ضمن الحدود التركية اليوم كاتب وجغرافي ومؤرخ ورحالة وتاجر مسلم من القرن العاشر للميلاد. من أشهر أعماله «صورة الأرض».

(٣) عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي مؤرخ عربي، تونسي المولد أندلسي الأصل، رحل إلى بسكرة و غرناطة و بجاية و تلمسان، كما تَوَجَّهَ إلى مصر، ووَلِيَ فيها قضاء المالكية، وتُوُفِّيَ عام ١٤٠٦ ويعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع الحديث.

(٤) انظر: الإصلاح و التربية في الجزائر، رابح، تركي، ص ٤٦.

ولقد انتشرت الكتاتيب بشكل واسع وبارز؛ نتيجة تحمس الناس الشديد للقرآن الكريم، وكثرة الفتوحات الإسلامية، وبالتالي اتساع رقعة الدولة.

كذلك ظهر نوع من الكتاتيب اختص بالأيتام، وكان الغرض من إنشائها، تعليم الأيتام وأبناء الفقراء ورعايتهم، إلى جانب التقرب إلى الله تعالى.

ولم تقتصر هذه الكتاتيب على تعليم الأيتام بل «أضيف إليهم أولاد الفقراء والجند والبطالين، وقد وفر هذا النوع من التعليم الرعاية العلمية والاجتماعية لهذه الفئة غير القادرة، والذين لم يكن في وسع ذويهم إرسالهم إلى المكاتب الخاصة، أو إحضار مؤدبين لهم إلى المنازل»[(١)].

ولقد كثر الاهتمام بكتاتيب الأيتام خلال عهود الزنكيين، والأيوبيين والمماليك، فهذا نور الدين زنكي يبني «في كثير من بلاده مكاتب للأيتام ويجري عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة»[(٢)].

وفي تطور لمهام الكتاتيب قسمت فيما بعد إلى نوعين:

١ ـ **كتاتيب أولية**: وكان يتعلم الأطفال فيها القراءة والكتابة، ويحفظون القرآن، ومبادئ الدين وأوليات الحساب.

٢ ـ **كتاتيب قانونية**: ـ إن صح هذا التعبير ـ كانت لتعليم الأطفال

(١) انظر: التعليم في مصر زمن الأيوبيين، عبد الغني محمود عبد العاطي ص١٢١.
(٢) انظر: الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة الدمشقي الشافعي، ص ١/ ٢٣.

والشباب علوم اللغة والآداب، وكانوا يتوسعون فيها بعلوم الدين والحديث وسائر صنوف العلوم الأخرى بصورة عامة[١].

وقد «حافظ (الكتَّاب القانوني) في الكثير الغالب على استقلاله التام عن الكتَّاب الآخر الذي كان يجري به تعليم القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي، وكثير من الباحثين لم يفرقوا بين نوعي الكتَّاب هذين، وقرروا أنه كان هناك نوع واحد من الكتاتيب تعلم فيها القراءة والكتابة ويحفظ فيه القرآن وتدرس به علوم الدين»[٢].

الكتاتيب في مصر: أما في مصر، فكان التعليم في مصر بعد الفتح العربي الإسلامي عام ٦٤٠هـ يقوم على نظام الكتاتيب ومدارس المساجد، وكان التعليم الذي يتم في الكتاتيب والمساجد تعليمًا شعبيًّا قام به الأفراد الذين أنشؤوا الكتاتيب لقاء رسوم زهيدة، كما أوقف بعض الأغنياء الأوقاف المختلفة للصرف على هذه الكتاتيب، وكان التعليم الذي يتم في الكتاتيب بسيطًا مركزًا أغلبه في حفظ القرآن وتعلم بعض القراءة والكتابة، أما الحساب فغالبًا ما كان يعلم عند قباني القرية، وانتشرت هذه الكتاتيب والمدارس الملحقة بالمساجد في فترة ازدهار مصر الإسلامية حتى جاء الفتح العثماني لمصر فتدهورت أمور البلاد وتدهور التعليم بالذات تدهورًا شديدًا، وذلك إثر قيام الحكام العثمانيين بإغلاق كثير من الكتاتيب، كما انحط التعليم في الأزهر الذي كان قد أنشئ كمؤسسة تعليمية في مصر وكانت تدرس فيه إلى

(١) انظر: التربية والتعليم في الأندلس، إبراهيم علي العكش، ص ١١٠.
(٢) انظر: التربية الإسلامية، أحمد شلبي، ص ٤٦.

جانب العلوم الدينية كانت تدرس فيه مختلف العلوم، مثل: الرياضيات والفلك والطب[١].

ويشير أحد أساتذة التربية إلى: «أن عدد الكتاتيب في مصر تجاوز الثلاثين ألف في القرى والكفور، حيث يوجد في كل قرية ما بين ٦ ـ ٨ دورًا لتحفيظ القرآن الكريم (الكتَّاب) ويوجد في مصر حوالي ٢٤٠٠ قرية، بخلاف كتاتيب النجوع والكفور، هذا إلى جانب الكتاتيب الموجودة في الزوايا، والمساجد الصغيرة في معظم الأحياء الشعبية بالمدن... وقد نشطت مدارس الإرساليات في بداية القرن التاسع عشر، إلا أنه ومع تنامي الصحوة الإسلامية اشتد الاهتمام العام بدور تحفيظ القرآن التي تطورت في الآونة الأخيرة من ناحية الشكل والبناء[٢].

كما عرف عن حكام مصر السابقين أمر اهتمامهم بالكتاتيب، وأبرزهم صلاح الدين الأيوبي (٥٨٩هـ)[٣]، الذي أخذ على عاتقه إصلاح شأن الكتاتيب والاهتمام بها على مدى عشرين عامًا قبيل انتصاراته التاريخية الباهرة على الصليبيين وتحرير بيت المقدس[٤].

وظلت الكتاتيب تؤدي دورها حتى كانت الحملة الفرنسية على مصر

---

(١) انظر: نشأة التعليم الحديث في مصر، أحمد عزت عبدالكريم، ص ٤٩.

(٢) انظر: الكتاتيب، د. سيد محروس، مجلة الأزهر، ١٣٥١/ رجب/ ١٤٢٦هـ.

(٣) يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدُويني التكريتي (٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ)، المشهور بلقب صلاح الدين الأيوبي، قائد عسكري أسس الدولة الأيوبية، قاد عدّة حملات ومعارك ضد الفرنجة وغيرهم من الصليبيين، وقد تمكن من استعادة مدينة القدس، بعد أن هزم جيش بيت المقدس هزيمة منكرة في معركة حطين. انظر: الوافي بالوفيات، الصفدي: ٢/ ٣٢٩.

(٤) انظر: دور الكتاتيب في حفظ الهوية الثقافية لأبنائنا، د. ليلى بيومي، موقع المسلم.

عام ١٧٩٨ والتي أحدثت هزة ثقافية شديدة بالنسبة للمجتمع المصري، والانفتاح على الحضارة الغربية الحديثة، وبعد خروج الحملة الفرنسية من مصر والتي استمرت ثلاث سنوات تولى محمد علي حكم مصر، وكان ذلك عام ١٨٠٥م، فبدأ بنشر التعليم الحديث مما أثر كثيرًا على وضع الكتاتيب والإقبال عليها.

ومع ذلك، ما زالت الكتاتيب تحتل موقعًا خاصًّا في قلوب المصريين، وهي من أعظم وأهم الوسائل التي من خلالها يظهر أثر ارتباط الجيل الجديد بالقرآن الكريم»[(١)].

أ ـ بداية الطلب:

كان ملاحظًا بصفة عامة أن سن ذهاب الصبي إلى الكتَّاب يتجه نحو التبكير في التعلم بالكتَّاب، فمنذ السنة الخامسة أو السادسة وغالبًا في الأرياف قبل ذلك، ينتقل الطفل إلى بيئة جديدة هي الكتَّاب، حيث يبقى فيها إلى أن يتم حفظ القرآن بأكمله، أو يحفظ جزءًا منه إلى جانب تعلمه القراءة والكتابة، وبعض النحو والعربية، وشيئًا من الحساب، وما إلى ذلك من الأمور التي كانوا يعتبرونها وسائل للإحاطة بالدين[(٢)].

إلا أن هذا كان يختلف من بيئة لأخرى فأولاد أصحاب المهن ـ وهم الغالبية ـ كانوا يتركون الصغار للكتاب من سن أصغر من هذا فقد التحقت بالكتاب وعمري ٣ سنوات، ولعله من الغالب أن يبقى الصبي

(١) انظر: الكتاتيب.. دور خالد في حفظ الهوية، عماد عجوة، جامعة القدس، مقال.
(٢) انظر: التربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، ص١٣٠.

في الكتَّاب حتى سن الثانية عشرة أو ما دون ذلك قليلًا، ولكن لا يمنع الأمر أن يكون هناك من هم في سن أكبر من الثانية عشر.

ولما كان الصبيان يأتون إلى الكتَّاب صغار السن، لذا كان على الأهل أن يؤمّنوا من يرافقهم في غدوهم ورواحهم إلى الكتَّاب، وأطلق على هذا المُرافق اسم السائق، واشترط فيه أن يكون «أمينًا ثقةً متأهلًا، لأنه يتسلم الصبي في الغدو والرواح، وينفرد به في الأماكن الخالية، ويدخل على النسوان، فيلتزم أن يكون كذلك»[(١)].

وتعد مثل هذه الأمور ظاهرة اهتمام واضحة من المسلمين بسلامة أطفالهم، وخاصة من خلال تلك القواعد التي وضعوها، ورعوا فيها الظروف الاجتماعية والأخلاقية للمجتمع، فوضعوا شروطًا وقيودًا للمحافظة على الأطفال من بعض الأمراض الاجتماعية التي قد تنتشر في مثل هذه الظروف، وقد امتد الاهتمام بالأطفال ليشمل أوقات الراحة والذهاب إلى المنزل والعودة منه.

ب ـ أبرز مهام الكتاتيب:

ولم تكن مهام الكتاتيب تربوية أو تعليمية فقط، بل كان لها دور اجتماعي مهم جدًّا، فلم يسمح المسلمون أن تقوم عزلة وحواجز بين الكتَّاب والمجتمع، ولذلك فهو يتفاعل مع مجتمعه، ويشارك في حياته اليومية، «فإذا مات عالم جليل أفاد العباد بعلومه، أو رئيسٌ نفع البلاد بآرائه وأعماله، أو أميرٌ عادل أنصف في أحكامه، أغلقت الكتاتيب

(١) انظر: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، عبد الرحمن بن نصر الشيرازي، ص ١٠٤.

أبوابها، وعطّل الأحداث دراستهم يوم دفنه؛ مشاركةً في المصاب العمومي، وإظهارًا للتأسي، وإجلالًا لخدمة الصالح العام»[(١)].

ولما كان والي مصر أحمد بن طولون (٢٧٠هـ)[(٢)] قد اشتدت علة مرضه، وزادت عليه أوجاعه، قرر معلمو الصبيان في مصر الخروج بصبيانهم إلى الصحراء؛ ليدعوا الله أن يشفي ابن طولون[(٣)].

ولذلك حرص المعلمون والمؤدبون على إشراك الصبيان في القضايا العامة التي تلمُّ بالمجتمع، فيقول ابن سحنون (٢٤٠هـ)[(٤)]: إذا أجدب الناس، واستسقى الإمام، فأُحِبَّ للمعلم أن يخرج بهم من يعرف الصلاة منهم، وليبتهلوا إلى الله بالدعاء ويرغبوا إليه، فإنه بلغني أن قوم يونس (عليه السلام) لما عاينوا العذاب خرجوا بصبيانهم، فتضرعوا إلى الله بهم[(٥)].

واللافت للنظر اهتمام الفقهاء المربين بصحة الصبيان في الكتَّاب، فنصحوا بعزل الصبي المريض عن رفاقه حتى لا ينتشر المرض بينهم،

---

(١) انظر: مقدمة كتاب آداب المعلمين لابن سحنون، لحسن حسني عبد الوهاب: ص٥٧.

(٢) انظر: أحمد بن طولون: (ت ٢٧٠هـ) أمير الشام والثغور ومصر ولاه المعتز بالله مصر. وكان عادلًا، جوادًا، شجاعًا، متواضعًا، حَسَنَ السيرة، يباشر الأمور بنفسه، ويعمر البلاد، ويتفقد أحوال رعاياه، ويحب أهل العلم. انظر: الوافي بالوفيات، الصفدي: ١/ ٨٧٠.

(٣) انظر: المنتظم، لابن الجوزي: ٥/ ٧٣.

(٤) انظر: ابن سحنون: هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام (سحنون) بن سعيد بن حبيب التنوخي (٢٠٢ ـ ٢٥٦هـ / ٨١٧ ـ ٨٧٠م)، فقيه مالكي مناظر، كثير التصانيف. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٠٤.

(٥) انظر: آداب المعلمين، لابن سحنون: ص١١١.

يقول العبدري (٥٣٥هـ)[١]: «ينبغي إذا اشتكى أحد من الصبيان وهو بالمكتب بوجع عينيه، أو شيء من بدنه، وعُلِم صدقُه أن يصرفه (المعلم) إلى بيته ولا يتركه يقعد في المكتب»[٢]؛ وذلك ليترك لأهله الاهتمام به، والعمل على معالجته؛ خوفًا من انتشار عدوى المرض بين الصبيان.

وطلب إلى معلم الصبيان منعهم من أكل الطعام والحلوى المكشوفة والمعروضة من قِبل الباعة الجوَّالين «فلا يدع المعلم أحدًا من البياعين يقف على المكتب ليبيع للصبيان؛ إذ فيه المفاسد إن اشترى منه»[٣]، «وبلغ الحرص عندهم لدرجة ترتيب طبيب يحضر بالمكتب في كل شهر»[٤].

إن اهتمام الحضارة الإسلامية بالأطفال يُدلل على أن هذه الحضارة لم تفرق بين الكبير والصغير، بل على العكس؛ فقد عَلِمَتْ أن صغار اليوم هم قادة الغد، فعملت على تنشئتهم تنشئة صالحة نافعة، عن طريق إقامة الكتاتيب، فتخرج من هذه الكتاتيب العلماء الأجلاّء، الذين أضافوا للبشرية الكثير[٥].

---

(١) أبو عامر محمد بن سعدون بن مرجى بن سعدون القرشى العبدري، الميورقي المغربي الظاهري،(٥٣٥هـ) نزيل بغداد ومولده بقرطبة، من أهم الرحالين المغاربة في القرن السابع الهجري. انظر: جذوة الاقتباس، للحميدي، ص ١٧٩.

(٢) انظر: المدخل، ابن الحاج العبدري ٢/ ٣٢٢.

(٣) انظر: المدخل، ابن الحاج العبدري، ٢/ ٣١٣.

(٤) انظر: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، عبد الغني محمود عبد العاطي: ص١٤٥، ومحمد منير سعد الدين: بحث بعنوان «دور الكُتَّاب والمساجد عند المسلمين» ص٣ ـ (بتصرف).

(٥) انظر: الكتاتيب ودورها في التراث، د. راغب السرجاني، ص ٣٤.

ويمكن تلخيص أهم أدوار الكتَّاب في القيام بالوظائف الآتية:

١ ـ تحفيظ القرآن وتعليم مبادئ وأسس الدين الإسلامي.

٢ ـ ضمان اكتساب المجتمع الحد الأدنى من الثقافة العامة والموحدة والتي لها تأثير مباشر على بقاء واستمرارية مختلف النظم الاجتماعية الأصلية.

٣ ـ تعليم اللغة العربية وحسن الخط.

٤ ـ أن يتعلم مبادئ الحساب الأولية.

كما عملت هذه المؤسسة على تحصين المجتمع من آثار الاستعمار فكانت رافدًا قويًّا لمعهد الأزهر[(١)].

ج ـ شروط معلم الكتَّاب:

أما معلم الكتَّاب فقد جمع مهامًّا متعددة بيده، ومهمته تشبه إلى حد ما مهمة المعلم المنفرد (حاليًّا)، لكنه يتصرف ضمن لوائح وإرشادات معينة لا يحق له الخروج عنها.

«وقد تحروا جهدهم في انتخاب المعلم الذي يتولى تعليم صبيانهم، فلا يختارون لهذه المهمة إلا من تقرر عندهم حسن أخلاقه، وتوفرت فيه خصال رشيدة جمَّة، منها الاشتهار بالاستقامة والعفاف، والعدالة مع الخبرة العامة بالقرآن وعلومه. وقد وضع الفقهاء المسلمون خصالًا ينبغي توفرها في معلم الكتَّاب، فكان القابسي (٤٠٣هـ)[(٢)] يرى أنه

---

(١) انظر: المؤسسات التربوية القديمة، زايد، مصطفى، ص ٢١.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المَعَافِرِي القروي القابسي المالكي، (٣٢٤ ـ=

ينبغي أن يكون مهيبًا لا في عنف، لا يكون عبوسًا مغضبًا، ولا مبسطًا، مرفقًا بالصبيان دون لين، وينبغي أن يخلص أدب الصبيان لمنافعهم»[(١)].

كما كان يشترط لهذا المعلم إضافة إلى ما سبق أن يكون «حسن الخط، ويدري الحساب، والأولى أن يكون متزوجًا، ولا يفسح لعازب أن يفتح مكتبًا إلا أن يكون شيخًا كبيرًا، وقد اشتهر بالدين والخير، ومع ذلك فلا يؤذن للتعليم إلا بتزكية مرضية وثبوت أهلية»[(٢)].

د ـ منهج الدراسة:

أما منهج التعليم ومواده المقررة، فكانت لا تخرج عن ثلاث مقررات رئيسة، هي:

١ ـ أن يحفظ القرآن الكريم كله أو بعضه عن ظهر قلب.

٢ ـ أن يتعلم القراءة والكتابة والخط.

٣ ـ أن يتعلم مبادئ الحساب الأولية.

ومع هذه المقررات الرئيسة اهتم المربون المسلمون بتكوين الشخصية السوية لأطفال الكتَّاب عن طريق التوجيه والإرشاد وتعلم الوضوء والصلاة، والتعود على محاسن الخصال، والحث على الكتابة للناس، وتعليم بعضهم بعضًا، وخاصة من خلال ذلك الصبي المتميز

=٤٠٣هـ) عالم المغرب، وصاحب «المُلَخَّص» و«الممهد» في الفقه، و«أحكام الديانات»، و«المنقذ من شبه التأويل»، وكتاب «المنبه للفطن» وكتاب «مُلَخّص المُوَطَّأ»، وكتاب «المناسك»، وكتاب «الاعتقادات»، وغير ذلك.

(١) انظر: آداب المعلمين، لابن سحنون، ص ٤٧.

(٢) انظر: معالم القربة في أحكام الحسبة، لابن الأخوة، ٢٦٠.

بعلمه، والمعروف بـ«العريف»، وإملاء بعضهم على بعض، وإمامة من بلغ سن الاحتلام وصلح لإمامة غيره في صلاة الجماعة، مع ما في ذلك من اهتمام بالتطبيق العملي لما يتعلمونه.

وقد يفرغ المعلم من تعليمهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، فيعلمهم «مبادئ علوم الدين واللغة»، أي: أن النشاط التعليمي داخل الكتَّاب كان يمتد ليشمل تعليم الأطفال بعض الأحاديث النبوية وآداب الدين، ويعلمهم عقائد أهل السنة والجماعة، ومما يتناسب مع السن والفهم، وكذلك قواعد اللغة، وما يستحسن من المراسلات والأشعار، ويدرجه بذلك حتى يألفه طبعًا[(١)].

وتواترت الروايات التاريخية قبلنا ثم عايشنا عمليًّا ـ ونحن صغار ـ أن المناهج الدراسية في (الكتَّاب) كانت تشتمل على تعليم القرآن الكريم وبعض علومه بأسلوب سهل مبسط قراءةً وحفظًا وتجويدًا وتفسيرًا، كما كانت تشتمل على التعريف بأحكام الصلاة والصوم ونحوهما من العبادات المألوفة المتكررة.

كانت المناهج تشتمل أيضًا مع تعليم القراءة والكتابة، الحرص على تعلم قواعد الخط، وبعض قواعد النحو الميسر، وحفظ بعض الأشعار والمتون، التي تتضمن معالم الأحكام والآداب الدينية والاجتماعية والأخلاقية.

ومما يؤكد أن الكتاتيب هذا هو منهجها التعليمي لقرون، مما نقل عن العبدري (٥٣٥هـ): «وينبغي له أن يُعلِّمهمُ الخطّ والاستخراجَ، كما

(١) انظر: تاريخ التربية الإسلامية، محمد شعبان أيوب، ص٢٢٦.

يعلِّمهم حفظ القرآن؛ لأنهم بذلك يتسلَّطُون على الحفظ والفَهْم، فهو أكبر الأسباب المعينة على مطالعة الكتب وفهم مسائله»[(١)].

وكان يتم في الكتاتيب أيضًا تعليم العمليات الحسابية الأربعة ونحوها، والمعلومات العامة الأولية في التاريخ والجغرافيا والعلوم، ونحو ذلك من المهارات الحياتية والاجتماعية والسلوكية، التي يحتاجها تلاميذ المدارس الابتدائية (حاليًا) في كل زمان ومكان، مما يسهل عليهم أمور حياتهم العامة، ويعودهم على تحمل المسؤولية المتوافقة مع قدراتهم[(٢)].

هـ ـ أبرز خصائص التعليم في الكتَّاب:

يتميز التعليم في الكتَّاب بعدة خصائص تميز بها عن بقية المؤسسات التعليمية الحديثة، ويمكن إيجاز أهمها فيما يأتي:

١ ـ إمكانية التعليم لجميع أفراد الفئات الاجتماعية بما فيها الغنية والفقيرة.

٢ ـ شعبية التعليم، بمعنى أن هذا التعليم كان مرتبطًا بمناطق ظهور التجمعات السكانية مهما كان مستواها الاقتصادي.

٣ ـ لا يتطلب نفقات تسيير هامة، فهو بذلك اقتصادي من ناحية التكاليف المادية ومن حيث التجهيز و التخطيط.

---

(١) انظر: المدخل، ابن الحاج العبدري، ٢/ ٣١٧.

(٢) انظر: آداب المعلمين، لابن سحنون، ص ١٠٢، ١٣٦، ومن روائع حضارتنا، لمصطفى السباعي، ص ١٢.

٤ ـ أنه عاش وتنقل برفقة الجماعات الرعوية، وهذه ميزة فريدة من نوعها.

٥ ـ ارتكاز هذا النوع من التعليم على اتجاهات نفسية دينية لدى المعلم وهذه الاتجاهات توفر جوًّا خالصًا للعمل والفعالية.

٦ ـ أنه كان نابعًا من حاجات المجتمع المحلي، فهو بذلك نتاج مبادرات شعبية.

٧ ـ ارتباطه في نشأته وتطوره بالمجتمعات العربية الإسلامية، حيث كان الكتَّاب وسيلة حيوية من أهم وسائل تحفيظ القرآن الكريم.

٨ ـ إن الوسائل التربوية المستخدمة كاللوحة، والحبر المحلي وأدوات المحو... إلخ، هي أدوات زهيدة التكاليف، يمكن العثور عليها في البيئة المحلية.

٩ ـ إن الكتَّاب مؤسسة متواضعة من حيث المظهر الخارجي، إلا أن الطريقة التربوية التعليمية بها عرفت نجاحًا كبيرًا، وخير دليل على ذلك ظهور العلماء الأجلاء، وحماة وحفظة القرآن الكريم قد تلقوا تعليمًا بهذه المؤسسة الدينية.

و ـ القيم التربوية في التأديب والثواب والعقاب في الكتَّاب:

وهي ما يطلق عليها اليوم (الطرائق التربوية في التعليم)، فلا شك أن تأديب الأطفال والصبيان كان ـ في الغالب ـ عن طريق الضرب، وقديمًا كنا نسمع آباءنا وهم يقولون: (لسيدنا) (لك اللحم ولنا العظم)، كناية عن عدم الممانعة في تأديبه، كما اشتهرت وسيلة العقاب في مصر بما يعرف (بالفلكة) كوسيلة للعقاب عن التقصير أو الخلل الأدبي.

مع أن قديمًا قد وضع الفقهاء لذلك مجموعة من الضوابط، مما يعني أن المسلمين قد اهتموا بتربية الأطفال وتأديبهم منذ فترة مبكرة؛ فقد ذكر ابن مفلح المقدسي (٧٦٣هـ)[١] في «الآداب الشرعية» قوله: «سئل أَحمد بن حنبل (٢٤١هـ)[٢] عن ضرب المعلِّم الصِّبيان، فقال: «على قدر ذنوبهم، ويتوقَّى بجهده الضَّرب، وإن كان صغيرًا لا يعقل فلا يضربه»[٣].

وقد حذّر كثير من الفقهاء والعلماء، المؤدِّبين والمعلمين من الإسراف والتفنن في ضرب الأطفال، أو معاملتهم معاملة قاسية، فقد قال العبدري (٥٣٥هـ): «وليحذرِ الحذرَ الكُلِّي من فعل بعض المؤدبين في هذا الزمان (القرن الثامن الهجري)، وهو أنهم يتعاطون آلة اتخذوها لضرب الصبيان مثل: عصا اللوز اليابس، والجريد المشرح، والأسواط النوبية، والفلقة، وما أشبهُ ذلك مما أحدثوه، وهو كثير ولا يليق هذا بمن ينسب إلى حمل الكتاب العزيز.

ومع ذلك للأسف ظل أسلوب الضرب وسيلة للعقاب مستمرًّا إلى زمن قريب وقد عايشنا جزءًا كبيرًا من هذا.

---

(١) شمس الدين ابن مفلح (٧٠٨ ـ ٧٦٣ هـ): محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبدالله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي، أعلم أهل عصره بمذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولد ونشأ في بيت المقدس، وتوفى بصالحية دمشق. من تصانيفه (كتاب الفروع)، و(النكت والفوائد السنية على مشكل المحرر لابن تيمية)، و(أصول الفقه) و(الآداب الشرعية الكبرى)، وله على (المقنع) نحو ثلاثين جزءًا.

(٢) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الذهلي (١٦٤ ـ ٢٤١هـ) فقيه ومحدِّث مسلم، ورابع الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الحنبلي في الفقه الإسلامي، اشتُهر بعلمه الغزير وحفظه القوي، وكان معروفًا بالأخلاق الحسنة كالصبر والتواضع والتسامح، ويُعدُّ كتاب «المسند» من أشهر كتب الحديث وأوسعها.

(٣) انظر: الآداب الشرعية، بن مفلح: ٢/ ٦١.

كما أن طرائق التعليم كانت تعتمد على «التلقين» فكانت تسود في الكتاتيب طريقة الحفظ والتلقين، فالمعلم هو الذي يشرح، وهو الذي يحلل ما يحتاج إلى تحليل، والمتعلمون عليهم أن يتقبلوا ما يقوله المعلم في معظم الأوقات»[(١)].

وفي هذا الصدد يشير ابن خلدون (٨٠٨هـ) قائلًا: «فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاختصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدرسة بالرسم ومسائله»[(٢)]، وهذا هو الذي كان متبعًا في سائر الأمصار، ولا نبالغ إن قلنا على الإطلاق.

وكان مظهر التربية الإسلامية التدريسية سواء في المساجد أو الكتاتيب هو حلقة الدرس، حيث يجلس المعلم ويتجمع حوله مجموعة من التلاميذ، ولم يكن المعلم يستند إلى نص مكتوب، بل يعتمد هو الآخر على ذاكرته في إلقاء دروسه، وسرعان ما بدأ في استخدام المذكرات حاليًّا، ومن هذا المنطلق صار الإملاء والاستملاء أسلوبًا له قواعده المحددة من طرف المعلمين»[(٣)].

وكانت مدة الدراسة في الكتَّاب تستمر إلى خمس سنوات أو أكثر، إلا أن نظام التعليم الإسلامي لا يضمن للتلميذ مرحلة متوسطة أو مرحلة سابقًا لمرحلة التعليم بالكتَّاب، وعلى التلميذ الراغب بعد تخرجه من الكتَّاب الاستمرار في التعليم أن يبحث لنفسه حلقة بالمسجد

(١) انظر: الإصلاح و التربية في الجزائر، رابح، تركي، ص ٥٢.
(٢) انظر: المقدمة، ابن خلدون: ص.٤١٦.
(٣) انظر: كتاب الاملاء و الاستملاء، السمعاني: حرره ماركس فايز، ١٩٥٢.

أو مقعدًا بالمدارس تعده للدراسات المتقدمة، غير أن أغلب التلاميذ يقع اختيارهم على حرفة أو صنعة.

رابعًا: أساليب وطرائق التدريس في الكتَّاب:

١ ـ طريقة تعلم وحفظ القرآن الكريم:

كانت طريقة الكتاتيب في مصر تختلف عن طرائق الكتاتيب في الكثير من الدول العربية والإفريقية، وفق المراحل العمرية من جانب، ومن جانب آخر وفق أقدمية الالتحاق بالكتاب وقدرات الجديد الوافد للكتاب، وتعتمد على أربعة مراحل، على النحو الآتي:

المرحلة الأولى: وهي (مرحلة التلقين) وتخص المرحلة العمرية دون الخامسة، ومعهم كل من لا يجيد القراءة والكتابة ولو كان أكبر منهم، فيقوم «العريف» بتلقين الطلاب القرآن من سورة (الحمد) إلى سورة (الفجر) ويكرر، وبعد كل ٣ مرات يسمع من الطلاب فمن يجتاز، يذهب (لسيدنا) ليسمع منه، فإن اجتاز أرسله للعريف الآخر في السورة التي بعدها.

المرحلة الثانية: وهي (لمن يقرأ ويكتب) لكن ما زالوا في بدايات الحفظ.

وتعتمد هذه الفئة على اللوح المكتوب مسبقًا من (الشيخ) وهي أن يخط الشيخ على اللوح بمؤخرة القلم، ويتتبع الطالب ذلك الخط بالقلم والمداد من سورة الناس، وهكذا يتدرج في الحفظ وإتقان الكتابة معًا، وبعد أن يتأكد شيخه من تعلّمه للكتابة وباستطاعته أن يكتب بالإملاء فينتقل من طريقة اللوح المكتوب إلى طريقة الإملاء.

المرحلة الثالثة: وهي الإملاء للوح المقرر حفظه، وفيه مهارتان: الإملاء والحفظ معًا، ويتوقف مقدار ما يُملى على الطالب على مقدرته على الحفظ، فيبدأ معه الشيخ ببضع آيات، ويتدرج به شيئًا فشيئًا، فإذا تبين أنه أصبح قادرًا على حفظ ثمن فعندئذٍ يملي عليه ثمنًا كاملًا.

ويأتي الطالب الذي يكتب بالإملاء في بداية الفترة الدراسية من اليوم، وقد جهز وجهًا من اللوح المخصص للكتابة عليه من اليوم السابق بعد عرضه على شيخه، وقام بمحو تلك الجهة من اللوح التي حفظها، فيدخل حلقة الكتابة، وتتكون تلك الحلقة (حلقة الإملاء) من عدد من الطلبة المنتسبين لتلك المرحلة.

والشيخ يملي على الجميع، كل في ثمنه دون ما أي تأخّر أو تردّد ولا ارتباك، ثم يقوم بعد ذلك الشيخ بتصحيح الألواح حيث يصحح لكل طالب لوحه ويعلّمه قراءته «التلقين»، ويقوم بالشرح أحيانًا فيقول له: هذه غريبة مثلًا؛ أي: أنها لا توجد في القرآن إلّا في هذه السورة، ويبين له الأخوات فيقول له: هذه ذُكرت مرتين أو ثلاث، واحدة هنا، والأخرى في سورة كذا وكذا، ويبين له أحيانًا مخارج الحروف وبعض الأحكام، وبعدها يقرأ الطالب على شيخه اللوح قراءة سليمة خالية من الأخطاء، ويقوم الطالب بعدها بحفظ لوحه، فتتكرر هذه العملية مع كل طالب على حدة، حتى يصحح الفقيه الألواح لكل تلاميذه.

وفي اليوم التالي يبدأ بتسميع اللوح السابق ثم يبدأ في اللوح الجديد ومن يخطئ ٣ أخطاء عليه إعادة اللوح ليوم آخر (يبيت اللوح) ويعد هذا للطالب (مذمة) يعيره الطلاب بها.

المرحلة الرابعة: وهي للطلاب الذين يجيدون القراءة وانتهوا من (جزء عم)، وهؤلاء يقرؤون من الأجزاء المفرقة المخصصة للحفظ،

من جزء (عم) إلى (الشورى)، ومن ينتهي من الشورى يبدأ من (سورة البقرة). ويبدأ في تعلم التجويد مع التطبيق إلى أن يتعلم أحكام التجويد كاملة.

ويتراوح مقدار حفظ هذه المرحلة من نصف الثمن إلى الثمن، كما أنهم يبدؤون في تلقي أحكام التجويد عن طريق المتون والتلقي، إلى أن يختم المصحف الشريف.

ثم يبدأ في الختمة الثانية وفيها يكون ملزمًا بكل قواعد التجويد، مع تحسين الصوت، أما الختمة الثالثة للمتميزين فيتعلم فيها بعض القراءات كل حسب قدرته، بعضهم من يأخذ قراءة أخرى مع (حفص) ـ كونها الأساس ـ وبعضم من يأخذ أكثر من قراءة.

أما المراجعة: فهي مستمرة مع الطالب يوميًّا، وللحفاظ جزء يوميًّا، إلي أن يختم كتاب الله حفظًا وإتقانًا وكتابةً ورسمًا، ويقوم بعدها بالتدريس مع شيخه إلى أن يزكيه شيخه، وبعضهم يكون له حلقة كتّاب وحده، ويكون بعدها شيخًا حافظًا لكتاب الله، معلمًا له.

٢ ـ طريقة تعلم الحروف الأبجدية والقراءة والكتابة والإملاء:

فكان معلم الكتَّاب يستخدم عدة طرائق تتكامل فيما بينها في تعليم أبجدية اللغة العربية، فهو يبدأ بتقديم الحروف للطالب، وذلك على النحو الآتي[(١)]:

يعتمد (الشيخ) في تحفيظ الحروف للتلميذ على قاعدة يقسمها في

(١) انظر: المؤسسات التربوية القديمة بالجلفة. زائد، مصطفى: ص ٣٦.

أذهان التلاميذ على مجموعات ثلاثة، تشترك كل مجموعة في صفة عامة، والمجموعات هي:

* **المجموعة الأولى**: يبلغ عدد حروفها ١٥حرفًا، وهي التي لا يلحق بها شيء من نقاط لا من أسفل ولا من أعلى.

* **المجموعة الثانية**: يبلغ عدد حروفها ١٢ حرفًا، وهي الحروف الملحقة بنقاط من أعلاها قد تكون واحدة أو أكثر.

* **المجموعة الثالثة**: ويبلغ عدد حروفها (٣) فقط، وهي التي بها نقاط من أسفل قد تكون واحدًا أو أكثر أيضًا.

وبمجرد الانتهاء من هذه الطريقة السابقة الذكر تكون الحروف قد رسخت في أذهان الأطفال طبقًا لشخصية كل مجموعة من المجموعات، يشرع (الشيخ) في تدريسها مرتبطة بموضوعات وصور محسوسة من بيئة التلميذ، وهذا يمكنه من إيجاد علاقة بين الصور الحسية التي يعرفها خلال اللعب والحياة اليومية العادية وصور الحرف المطلوب منه تعلمه.

٣ ـ أما مراحل تعليم القراءة في الكتَّاب فكانت على النحو الآتي:

كانت تمر مرحلة تعليم (القراءة والكتابة) في الكتَّاب بخمس مراحل على النحو الآتي:

المرحلة الأولى: عندما يحضر التلميذ لأول مرة إلى الكتَّاب يقدم له (سيدنا)[١] (اللوح)[٢] ويسجل فيها حروف الهجاء العربية في جهة

(١) وهو الاسم الذي كان يطلق على صاحب الكُتَّاب.

(٢) وهو عبارة عن لوح خشبي مدهون بلون أسود ويكتب عليه بالحجر الجيري، وكان هناك ألواح خشبية أخرى ملساء بيضاء يكتب بقلم يعرف بالقلم (الكوبيا).

واحدة، أما الجهة الثانية فيسجل عليها سورة الفاتحة، ثم يبدأ (الشيخ أو العريف) في تلقين التلميذ هذه السورة جملة ليحفظها سماعًا بدون تهجين وبدون فهم، فإذا ما حفظها في أسبوع مثلًا يمحوها بماء طاهر ثم يدهنها بمادة الصلصال ويتركها في الشمس أو قرب النار لتنشف، ثم تسطر بقلم الرصاص (الكوبيا)، ويكتب المعلم سورة الناس للحفظ بالتلقين وبالسماع، وهكذا صعدًا مع المصحف.

أما حروف الهجاء فتبقى مسجلة في تلك الجهة من اللوحة لمدة أشهر حتى يحفظها التلميذ عن ظهر قلب، يحفظها أولًا بأسمائها: ألف، باء، تاء... ياء، همزة. ثم ينتقل التلميذ إلى نطقها هكذا بـ(العامية المصرية): «ألف ما ينطقش»، الباء وحدة من تحت، التاء (اتنين) من فوق، الثاء (تلاتة من فوق)... إلخ.

المرحلة الثانية: وهي معرفة صور الحروف و أشكالها، ومعرفة وجه الشبه بينها وبين بعض الأدوات المحسوسة التي يشاهدها التلميذ كل يوم وينطق بها هكذا: الألف كالعصا، الجيم كالمخطاف، و هكذا حتى آخر حرف.

وبعد هذا كله ينتقل التلميذ إلى معرفة كيفية النطق بالحروف وللطفل سورًا من القرآن الكريم في جهة من اللوح.

المرحلة الثالثة: تتمثل في كتابة المعلم سطورًا من القرآن في جهة من اللوح وعلى التلميذ أن يمر بقلمه الغليظ على ما كتبه (سيدنا)[(١)].

المرحلة الرابعة: يكتب (سيدنا) سطرًا ويترك سطرًا فارغًا فيأتي

(١) انظر: الكتاتيب القرآنية، بن أحمد التيجاني، عبد الرحمن، ص.٣٧ ـ ٣٨.

الطفل لينقل ما كتبه معلمه في السطر الأعلى محاكيًا إياه والقصد من هذه المرحلة الأولية يتمثل في تدريب التلميذ على حسن إمساك القلم والتحكم فيه صعودًا ونزولًا ومشيًا به إلى الأمام وإلى الخلف ورفعه للتنقيط وهكذا.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الطريقة هي التي خرجت بها كتب الخط (دفاتر الخط) في المدارس والمعاهد الأزهرية، والمعاهد العلمية السعودية بعد ذلك، وما زالت متبعة حتى اليوم.

أما المرحلة الخامسة: فيأتي دور التهجي يهجي التلميذ الكلمة التي يمليها عليه المعلم فيعدد حروفها، ويرجع عند كل حرف يريد كتابته إلى الحروف الهجاء المرسومة في اللوحة، ويسجل الحرف المعني بصورته وحركته وينقطه إن كان يحمل نقطة.. وهكذا.

وخلاصة القول: إن الطريقة التربوية التعليمية التي كانت متبعة في الكتاتيب هي قديمة وجدت مع وجود هذه المؤسسات، وبالرغم من أن هذه الطريقة لها ما يعاب عليها إلا أننا لا يجب أن ننكر مدى فعاليتها في شتى المجالات: الخلقية، الاجتماعية، التحفيظية ومحو الأمية... إلخ.

أما النقد القاتل الذي وجه لهذه الطريقة بأن الطريقة المتبعة في (الكتاتيب) قد أهملت بصفة كاملة نفسية الطفل من حيث قدراته العقلية، واستعداداته، وميوله، لا أجد له مبرَّرًا، فهذ النقد لم يظهر إلا بعد ظهور علم النفس واستقلاله عن الفلسفة، الذي أصبح ينظر إلى الطفل على أنه ينفرد بشخصيته التي تميزه عن الآخر، كما أن هذا النقد

أهمل الحقبة الزمنية القديمة التي عاشتها الكتاتيب في ظل الظروف البيئية، والمعيشية، وانعدام التعليم لغالبية الناس، فذلك كان عيب العصر كله، وفق نقدهم، وإن كنا نجزم بأن التعليم الذي كان متاحًا وقتها، والطرائق التي استخدمت أثبت جدواها وحققت ما لم تحققه كثير من نظرياتهم النفسية.

٤ ـ طرائق تعليم (الحساب) وكان الطالب يمر بأربع مراحل على النحو الآتي:

المرحلة الأولى: وهي معرفة الأعداد من (١ ـ ١٠) وبعد إتقانها حفظًا وترتيبًا، ينتقل إلى الأعداد المركبة (١١ ـ ١٩)، ثم إلى ألفاظ العقود (٢٠ ـ ٩٠)، ثم ينتقل إلى الأعداد المعطوفة (٢١ ـ ٩٩)، ويظل حتى يتقنها حفظًا ونطقًا تصاعديًّا وتنازليًّا، فينتقل إلى المئات والألوف تصاعديًّا.

المرحلة الثانية: وهي تعلم مبادئ الطرح والجمع، وهي تمر بمراحل (الجمع بدون حمل ـ ثم الجمع بالحمل ـ ثم الطرح بدون استلاف ـ ثم الطرح بالاستلاف)، وتبدأ من رقمين مفردين ثم الأرقام المركبة ثم الأرقام المعطوفة ثم المئات والآلاف.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة حفظ جدول الضرب، ويبدأ برقم رقم ولا ينتقل إلى الرقم الذي يليه حتى يتقن جدول الرقم السابق وعند الانتقال يردد الجدول الحالي والسابق، ثم ينتقل إلى بدء عمليات الضرب الأولية وتصاعديًّا حتى يصل لمراحل متقدمة حسب قدرته.

المرحلة الرابعة: وهي مرحلة القسمة، وكانت تعتمد على العمليات

الحسابية السابقة من الجمع والطرح والضرب وكلما كان متقنًا لما سبق يكون متميزًا في عمليات القسمة وتبدأ تصاعديًّا حتى يصل لقسمة أكبر عدد على أكبر عدد.

وقد عايشنا هذه المراحل حتى دخلنا المدارس الابتدائية، فكنا في الصف الأول الابتدائي نتقن القراءة والكتابة وبخط مميز، مع العمليات الحسابية المعقدة ولم تكن هناك وقتها آلات حسابية كما هو موجود الآن.

وتؤكد النظريات الحديثة التي تناولت هذه الطرائق في التعليم: «أن هذه المرحلة العمرية غنية بالمهارات التي يمكن استثمارها، يقول د. تيسير راشد (الأستاذ بكلية رياض الأطفال): إن قدرة الطفل على الحفظ في مرحلة الطفولة المبكرة تكون عالية جدًّا ولا بد من استغلال هذه القدرة في حفظ آيات القرآن الكريم بدلًا من حفظ أشياء وحكايات لا معنى لها.. وحفظ القرآن الكريم يقوّم لسان الطفل ويقوي مخارج الألفاظ عنده وهناك أطفال يحفظون القرآن كاملًا في سن ٦ سنوات وكلما كان الحفظ في سن صغيرة كلما كان أكثر ثباتًا واستمرارية في ذاكرة الطفل... والحفظ بالتكرار وفي الجو الجماعي يسهل على الطفل ويزيد من قدرته واستيعابه لآيات الذكر الحكيم»[(١)].

وفي دراسة هامة حول أثر تعلم القرآن والفقه على مستوى النمو اللغوي للطفل: «للبيئة الثقافية للفرد دور أساسي في خلق جو من التفاعل اللغوي والإيجابي من خلال إتاحة الفرص المناسبة لتعلم اللغة

(١) انظر: خصائص الطفل، د. تيسير راشد، ص ٢٣.

وممارستها على النحو الذي يناسب مستوى نضج الطفل ويساعده على النمو العقلي والانفعالي، ويتشكل ذلك المناخ الثقافي الفعال من قدرة الأسرة على التفاعل اللغوي المثمر وتوجيه الطفل إلى هذا التفاعل كإلحاقه بجمعيات تحفيظ القرآن (الكتاتيب) التي تعد الطفل ليكون ذاكرًا لأكبر تراث لغوي، ومحافظًا على ذاته من خلال ذلك التذكر الواعي لآياته حيث يقول الحق جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧)، ويقول تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ (فصلت: ٤٤)، ومن أفضل أنعم الله على أمة محمد ﷺ أن جعل دستورها قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج، من تعلمه وعمل به فقد فاز في الدنيا والآخرة، ومن تركه خلف ظهره فقد خسر خسرانًا مبينًا[(١)].

خامسًا: مكونات الكتاتيب والأدوات المستخدمة:

تختلف هذه المساحة من كُتاب إلى آخر وغالبًا ما يشتمل الكتَّاب على مكان للشيخ (سيدنا) ومكان مخصص للمساعد (للعريف)، ويوزع الطلاب إلى مجموعات في الغالب هي وفق مراحلهم التعليمية بغض النظر عن المرحلة العمرية، وكل مجموعة لها مكان مخصص، إضافة إلى مكان مخصص للصلاة، كما كان في الغالب هناك مكان مخصص

(١) انظر: صحة الطفل، للدكتور عبد الباسط متولي (أستاذ الصحة النفسية بكلية التربية جامعة الزقازيق)، مجلة الكلية، ص ٥٧.

للوضوء سواء كان للصلاة أو لتجديد الوضوء من أجل الإمساك بـ(اللوح) المكتوب عليه السور أو (اللوح) المطلوب حفظه، وكان هذا هو الغالب، وبعضها كان يوفر مكانًا لـ (الفسحة) وهي فترة ما بين تعلم (اللوح) اليومي، وما بين فترة اللغة وبين فترة الحساب[١].

وكان المكان المخصص للكتاب «يختلف باختلاف المعلمين ومشاربهم فمن مكان متسع طلق الهواء يساعد الصبية على الإقبال على الدرس إلى مكان مظلم لا تدخله الشمس يحدّ من استعداد الصبية للحفظ والإفادة من التعليم»[٢].

وفي الغالب يوجد الكتَّاب على العموم ضمن أحد المنازل بالحي، أو ملحقًا بأحد المساجد، وكان يبني الكتَّاب شخص احتسابًا لمرضاة الله، أو قد يكتريه (الشيخ) عن صاحبه ليعلم فيه بأجرة يتقاضاها من أولياء التلاميذ، أو يكون في (حوش) بيته[٣].

كما اختلفت أحجام الكتاتيب صغرًا وكبرًا، «فكتاب أبي القاسم البلخي كان يتعلم فيه (٣٠٠٠ تلميذ) وتدل رواية ياقوت على أن هذا الكتَّاب بجانب استقلاله عن المسجد كان فسيحًا ليتسع لهذا العدد الكبير، ولهذا كان يحتاج البلخي أن يركب دابته ليتردد بين هؤلاء وأولئك؛ وليشرف على جميع تلاميذه»[٤].

وفيما يخص تجهيز الكتَّاب، فعادة ما يجلس التلميذ على حصائر

---

(١) انظر: مدرستي الأولى، مبروك رمضان، مجلة الأسرة، العدد ٩٧٦، ص٢٣.
(٢) انظر: التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول، خطاب عطية علي: ص ٧٢.
(٣) انظر: الكتاتيب القرآنية، بن أحمد التيجاني، عبد الرحمن، ص ١٩ ـ ٢٠.
(٤) انظر: التربية الإسلامية، أحمد شلبي ص ٥٤.

مصنوعة من الديس، يجلس عليه الطلاب متربعين حول معلمهم، أو على مقاعد خشبية هي عبارة عن لوحات من الخشب المتصل والمستطيلة الشكل والتي لا تكاد ترتفع إلى سنتيمترات عن سطح الأرض.

وقد يختص المعلم «بسرير أو كرسي مرتفع، وربما عوض الكرسي بمصطبة مبنية (دكانة) ليس عليها من الرياش سوى بساط صغير»[(١)].

كما كانت أدوات الدراسة تختلف من مرحلة لمرحلة فالمبتدئ (لوح خشبي وقطعة حجر جيري)، والمرحلة التي تليها (اللوح الخشبي الأملس) ومعه القلم الرصاص (الكوبيا)، والمرحلة التي بعدها (الأجزاء المتفرقة من القرآن المخصصة للحفظ) ودفاتر ورقية، وقلم رصاص، أما أعلى المراحل فهي تتضمن مصحفًا شريفًا وكشكول ورقي (دفتر كبير مقسم لأقسام)، والقلم الحبر أو ريشة الكتابة حسب الرغبة ودواية الحبر سواء كان جاهزًا أو من صنع الطالب، فقد كنا نصنع الحبر من (هبوب موقد الكيروسين).

ومن الوسائل التي كانت تعرف بها أعداد الطلاب «إحصاء محابرهم التي يضعونها أمامهم والتي كانت أهم عتاد الطالب»[(٢)]، وكانوا يمسكون في أيديهم بالأقلام والأوراق للكتابة ويضعون أمامهم المحابر، «ويحضرون كتبهم في شيء يسمى قارورة ولعلها سميت بهذا

(١) انظر: آداب المعلمين، لابن سحنون، ص ٥٠.
(٢) انظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز: ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

الاسم من قبيل الفكاهة»[١]، وكنا نسميها (كيسة) وهي غالبًا من القماش.

إلا أن متطلبات التطور المستمر أدى إلى تغيير طرأ على الكتَّاب يتعلق الأمر باستخدام مواد البناء الحديثة والتي بدأت تشق طريقها للتأثير بشكل أو بآخر على تخطيط وبناء الكتَّاب، وكذلك على الأدوات الحديثة المستخدمة حسب تطورها يومًا بعد يوم.

سادسًا: التنظيم التعليمي والإداري:

أما تنظيم التعليم في الكتَّاب فقديمًا قام الفقهاء بمحاولات تنظيمه قدر الإمكان، وأخضعوا الكتاتيب لشروط موحدة، بالإضافة إلى ما كانت تقوم به الدولة (أحيانًا) من الإشراف عليها، وعلى أنظمتها من خلال (المفتش)، ومراقبته لها، والذي له الحق أن يمنع من لم تتوفر فيه الشروط اللازمة من ممارسة المهنة.

وكانت الحياة في الكتاتيب «فطرية في الغالب» وأوقات الدراسة فيها كانت تحدد بعلامات طبيعية، فشروق الشمس كان بدء اليوم الدراسي، يطول ويقصر تبعًا لشروق الشمس، وأذان العصر»[٢].

وأما بالنسبة للراحة والعطل المدرسية، فقديمًا لوحظ الاهتمام بإعطاء الصبي قسطًا من الراحة بعد عناء الدراسة، فهذا ابن الحاج

---

(١) انظر: المرجع السابق: ص٢٩٧.

(٢) انظر: التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، حسن عبد الله، ص ١٨٥.

العبدري (٥٣٥هـ) يقول: «إن ذلك مستحب لقوله ﷺ «روحوا القلوب ساعة وساعة»[(١)]، فإذا استراحوا يومين في الجمعة نشطوا لباقيها»[(٢)].

وهناك تعطيل في أيام الأعياد، وحالات المرض، والرياح والعواصف والبرد والمطر الشديد.

أما المعلم فإذا تغيب لشغل طارئ «فعليه أن يستأجر للصبيان من يكون فيهم بمثل كفايته إذا لم تطل مدة ذلك... كذلك إن هو سافر فأقام من يوفيهم كفايته لهم، إن كان سفرًا لا بد منه، قريبًا اليوم واليومين، وما أشبههما فيستخف ذلك إن شاء الله، وأما إن بعد أو خيف بعد القريب لما يعرض في الأسفار من الحوادث فلا يصلح له ذلك»[(٣)].

سابعًا: تعليم البنات في الكتَّاب:

لم يكن التعليم مختصًّا بالصبيان الذكور دون الإناث، ـ وإن كان للإناث أقل بكثير من الصبيان ـ، بل إنه كان شاملًا للجنسين، لا سيما عند الأغنياء، وأصحاب المناصب العالية والعلماء، «فكان القاضي عيسى بن مسكين (٢٧٥هـ) كان يقرئ بناته وحفيداته، قال عياض (٥٤٤هـ): وكان من سيرة عيسى بن مسكين في غير مدة قضائه أنه كان إذا أصبح قرأ حزبًا من القرآن، ثم جلس للطلبة إلى العصر، فإذا كان بعد العصر دعا بنتيه وبنات أخيه يعلمهن القرآن والعلم»[(٤)].

---

(١) انظر: مراسيل أبي داود قال السخاوي وله شواهد من الصحيح: المقاصد الحسنة ٢٧٥.

(٢) انظر: المدخل، ابن الحاج العبدري، ٢/ ٣٢١.

(٣) انظر: آداب المعلمين لابن سحنون ص ٥٧.

(٤) انظر: الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين، أبو الحسن القابسي، ٣٢١.

ويبدو أن بعض الصبيان كانوا يستمرون في الكتَّاب إلى سن الاحتلام، ولهذا كان يخشى على الإناث من الفساد، وذلك لم يمنع البنات من التعليم، وإنما منع اختلاطهن بالذكور، انطلاقًا من الغيرة على الأخلاق، وحفظ الدين، وأكبر دليل على انتشار التعليم بين الإناث تلك الأعداد الكبيرة من النساء الفقيهات، والشاعرات، والكاتبات... إلخ، واللائي تعلمن في الكتَّاب وحفظن كتاب الله تعالى وتعلمن القراءة والكتابة والحساب، قبل التعليم الإلزامي أو في وقت لم يكن هناك مجال لتعليم البنات في التعليم الرسمي.

ثامنًا: الحياة الاجتماعية في الكتَّاب:

على مر العصور لم يسمح المسلمون أن تقوم عزلة وحواجز بين الكتَّاب والمجتمع، ولذلك كان يتفاعل مع مجتمعه، ويشارك في حياته اليومية «فإذا مات عالم جليل أفاد العباد بعلومه، أو رئيس نفع البلاد بآرائه وأعماله، أو أمير عادل أنصف في أحكامه، أغلقت الكتاتيب أبوابها، وعطل الأحداث دراستهم يوم دفنه مشاركة في المصاب العمومي، وإظهارًا للتأسي وإجلالًا لخدمة الصالح العام»[(١)].

ويشارك الصبيان في القضايا العامة التي تلم بالمجتمع فيقول ابن سحنون: «إذا أجدب الناس، واستسقى الإمام، فأحب للمعلم أن يخرج بهم من يعرف الصلاة منهم، وليبتهلوا إلى الله بالدعاء ويرغبوا

(١) انظر: آداب المعلمين، لابن سحنون، ص ٥٧.

إليه، فإنه بلغني أن قوم يونس ـ صلى الله على نبينا وعليه السلام ـ لما عاينوا العذاب خرجوا بصبيانهم، فتضرعوا إلى الله بهم»[(١)].

وقد تميز التعليم في الكتَّاب بالاهتمام بالآداب الاجتماعية حيث «يقوم المعلم بتأديب الأطفال، وتربيتهم التربية الصالحة، وتعويدهم العادات الحسنة، وتعليمهم كيفية احترام الناس، ومراعاة الذوق والأدب طبقًا للعرف الجاري، وأن يلقي السلام على من يدخل عليهم، أو يمر بهم من الناس، ويأمرهم ببر الوالدين، والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والسلام عليهما، وتقبيل أياديهما عند الدخول إليهما، ويضرب المعلم طلابه على إساءة الأدب، والفحش في الكلام وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع»[(٢)].

تاسعًا: الرعاية الصحية:

والملفت للنظر اهتمام الفقهاء المربين بصحة الصبيان في الكتَّاب، فنصحوا بعزل الصبي المريض عن رفاقه حتى لا ينتشر المرض بينهم، يقول ابن الحاج العبدري (٥٣٥هـ): «ينبغي إذا اشتكى أحد من الصبيان وهو بالمكتب بوجع عينيه، أو شيء من بدنه، وعلم صدقه أن يصرفه (المعلم) إلى بيته ولا يتركه يقعد في المكتب»[(٣)].

وذلك ليترك لأهله الاهتمام به، والعمل على معالجته؛ خوفًا من انتشار عدوى المرض بين الصبيان.

---

(١) انظر: آداب المعلمين، لابن سحنون، ص١١١.
(٢) انظر: معالم القربة في أحكام الحسبة،، لابن الأخوة، ٢٦١.
(٣) انظر: المدخل، ابن الحاج العبدري ١/ ٣٢٢.

وطلب إلى معلم الصبيان منعهم من أكل الطعام والحلوى المكشوفة والمعروضة من قبل الباعة الجوالين «فلا يدع المعلم أحدًا من البياعين يقف على المكتب ليبيع للصبيان، إذ فيه المفاسد إن اشترى منه»[(١)].

وبلغ الحرص عندهم لدرجة «ترتيب طبيب يحضر بالمكتب في كل شهر»[(٢)].

ووصلت العناية بنظافة الصبيان في المكتب بأن أوجبوا عليهم أن يكون لمسح الألواح مكان طاهر نظيف، وأن يستخدموا الخرق الطاهرة لمسح الألواح، ولا يستخدموا البصاق بل الماء الطاهر، لأن البصاق فيه القذارة وعدم الاحترام للمادة المكتوبة على الألواح.

وقد عايشنا ونحن في الكتَّاب أن (الشيخ) كان يحضر المسؤول عن التطعيم الدوري ليقوم بتطعيم الطلاب، أو استدعاء (مفتش الصحة) ليمر على طلاب الكتَّاب للكشف على أسنانهم أو المريض، وكان الطالب المريض يتم حجزه في مكان بعيدًا عن الآخرين، أو منحه إجازة حتى يشفى.

عاشرًا: تمويل ومصروفات الكتَّاب:

كان يتم تمويل التعليم في الكتَّاب عن طريق ما يقوم به الآباء نحو أبنائهم، وما يدفع لمعلمهم من أجر مشاهرة، أو مسانهة (أي معاملة بالسنة) أو مقاطعة (أي يقطعه مقاطعة مقابل تعليم الطفل) أو بما يقوم به

(١) انظر: المدخل، ابن الحاج العبدري ١/ ٣١٣.
(٢) انظر: التعليم في مصر زمن الأيوبيين، عبد الغني محمود عبد العاطي ص١٤٥.

القادرون ماديًّا، نحو أقاربهم الفقراء وغير أقاربهم من أبناء المسلمين، مما يدخل في باب التكافل العلمي عند المسلمين.

وقد يختلف من ولي أمر لآخر فكان بعضهم يدفع مالًا، وبعضهم يرسل للشيخ بعض منتجات عمله، فالفلاح يعطيه من مخرجات الأرض سواء بشكل دوري أو سنوي، والصياد كذلك، أما أصحاب الحرف فكان غالبهم ما يدفعون مالًا شهريًّا أو سنويًّا.

ولقد أبرز التطبيق العملي لمبادئ الإسلام صورًا من التضامن المجتمعي في مجال التعليم، مما رفع عن كاهل الدولة الصرف على التعليم وتمويله إلا في أضيق الحدود، ولعل ذلك كان سببًا للانتشار الواسع لمؤسسات التعليم الأولي في العالم الإسلامي[(١)].

حادي عشر: محاولات طمس هوية الكتاتيب والحد من تأثيرها:

لا شك أن (الكتاتيب) وأمثالها مثل: (حلقات تحفيظ القرآن) مثلت وما زالت تمثل دورًا متميزًا في تكوين الخلفية القرآنية الإسلامية في عقول كثير من أبناء المجتمعات في الدول الإسلامية، ولقد كانت تلك الكتاتيب التي انتشرت في كثير من ربوع دولة الإسلام من جنوب شرق آسيا عبر إندونيسيا وماليزيا ومملكة فطاني ـ سابقًا ـ وغيرها مرورًا بباكستان وأفغانستان ودول شمال آسيا.. إلى أقصى الغرب الإسلامي في المغرب وموريتانيا.. ثم الجنوب في جنوب السودان الصومال ووسط أفريقيا وغيرها، إلا أنه وجهت لها الكثير من المخططات الخبيثة

(١) انظر: الحضارة الإسلامية، علي بن نايف الشحود، ص ١٤.

المنظمة للقضاء على الآثار الإيجابية لتلك الكتاتيب في العالم الإسلامي.. حتى أصبحت مؤسسة (الكتَّاب) ـ تلك المؤسسة الصغيرة العتيدة ـ مهددة بالانهيار التام، بل والانقراض.

فمن ذلك ـ على سبيل المثال ـ عشرات بل مئات الأناشيد، والأغاني، والأشعار، والحكايات الأخرى، التي باتت تحتل مساحة كبيرة من عقول الأطفال الناشئة، وذلك على حساب حفظ القرآن الكريم في تلك المرحلة العمرية الهامة والحيوية والتي تستوعب حفظ ملايين من الكلمات.

ومع ذلك ـ من فضل الله ـ نجد أطفالًا قد أتموا حفظ أجزاء كبيرة من القرآن الكريم قبل دخول المدرسة وخصوصًا في الكتاتيب، ويعرف الجميع دور الكتَّاب أو مكتب تحفيظ القرآن الكريم على مستوى القرى والأحياء الشعبية في حفظ القرآن ونشره على امتداد القرون الطويلة.

كما تسارعت المخططات الحديثة لمحاربة الإسلام، عن طريق مطاردة تلك الكتاتيب وإغلاقها وإضعاف دورها وإهمالها وقطع المعونات المادية عنها وصرف التلاميذ والأطفال بعيدًا عنها وعدم العناية بالمحفظين.

وتأتي تلك الضربات من عدة نواحي أبرزها من خلال الغزو الثقافي التغريبي، الذي اجتاح البلدان العربية والإسلامية منذ منتصف القرن الماضي، والذي سخر الأدب ووسائل الإعلام للنيل من صورة الشيخ محفظ القرآن الكريم وتصويره في القصص والروايات، وكذلك في

الأفلام والمسلسلات بشكل هزلي كأنه إنسان بشع يتلذذ بضرب الأطفال ويتناول طعامهم وخارج عن السياق الاجتماعي والأخلاقي.

ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ قصة الأيام لطه حسين والتي كانت مقررة وما زالت على بعض مراحل التعليم لترسيخ هذه الصورة. وقد تحولت لعمل درامي أخذ أشكالًا مختلفة ووضع صورة نمطية (لسيدنا الشيخ «المحفظ» ومساعده «العريف») وتلا ذلك سيلًا من الأعمال الأدبية والإعلامية التي سارت على نفس هذا المنهج المنفر من محفظ القرآن ومدرس الدين.

أما بقية الوسائل لحصار دور الكتاتيب فقد جاءت على عدة محاور أهمها التضييق على المحفظين وإغلاق الأبواب في وجوههم بدلًا من مساعدتهم والاهتمام بشأنهم.

فإن هؤلاء المحفظين يعتمدون في معيشتهم على بعض العطايا المتواضعة من أسر الأطفال فقط، ولا يستطيعون ممارسة التجارة أو الزراعة أو العمل خارج البلاد، ومن ثم ظلت أحوالهم الاقتصادية متواضعة، حتى أن وزارة الأوقاف كانت قد أقرت لهم مكافآت رمزية لبعض الوقت لكن سرعان ما توقف هذا الدعم المتواضع وقد أدى هذا تباعًا إلا أن أبنية الكتاتيب صارت في معظمها قديمة وغير مؤهلة على المستوى الإنشائي والصحي لاستيعاب أعداد كبيرة من الأطفال، وخصوصًا أبناء الطبقة المتوسطة وأبناء المتعلمين الذين يطمحون في إلحاق أبنائهم بدور تحفيظ متطورة، ومن ثم لا يجدون بغيتهم في الكتاتيب فيلحقون صغارهم قبل سن المدرسة الابتدائية بدور الحضانات

التي بدأت تنتشر في الريف على حساب الكتاتيب وتجد تشجيعًا مشبوهًا من بعض المؤسسات العلمانية.

إن هذه المؤسسات الحديثة وضعت ضمن أهدافها وأولوياتها تشجيع وإقامة دور الحضانات في الريف، وتزويدها بالمناهج المختلفة التي تعج بالغث من المواد، ورغم أن هناك العديد من المحاولات التي يقوم بها بعض العلماء وأهل الخير للاهتمام بالكتاتيب من خلال الجمعيات الأهلية التي تساهم في مساعدة المحفظين ببعض الأموال أو تقديم المعونات للنهوض بالأبنية القديمة إلا أنها في النهاية جهود فردية يتم حصارها في كثير من الأحيان.

ومع ذلك فإن الكتاتيب في قرى ونجوع مصر لا زالت تتمتع بالكثير من طابعها القديم حتى الآن برغم اختفاء بعض وسائل التعليم التي كانت مرتبطة بالكتاتيب منذ عشرات السنين، مثل: الأحبار والألواح المعدنية التي كانت تستخدم في الكتابة وتساعد في تحسين «الخط العربي للطلاب»، وكذلك اختفت «الفلكة» أحد أدوات العقاب التي كانت تمثل رعبًا للطلاب المتخاذلين، كما غاب دور «العريف» وهو مساعد الشيخ الذي كان ينوب عنه في غيابه ويقوم بإدارة الكتَّاب ويجمع الأجرة من التلاميذ التي كانت تسمى «الجراية» أو «الميسانية» أو «العوايد» وكانت تدفع شهريًّا أو سنويًّا، حسب الاتفاق الشفهي المبرم بين ولي أمر الطفل والشيخ، وكانت عبارة عن حبوب وغلال وأرطال من اللحم إلا أن أجرة محفظ القرآن خلال الأعوام الماضية أصبحت نقودًا تدفع شهريًّا وهو أجر رمزي للغاية؛ حيث إن تحفيظ القرآن يكون ابتغاء مرضاة الله في المقام الأول.

وفي السنوات الأخيرة برزت ظاهرة الكتاتيب النسائية التي تقوم عليها فتيات في عمر الزهور، حفظن القرآن قبل الخامسة عشرة من عمرهن ويقمن بتحفيظ أمهاتهن وأقاربهن ما لم يتمكن من حفظه في الصغر.

ولقد نجح كثير من المحفظين في تطوير أساليب التلقين والتعليم في الكتاتيب، دخلت فيها المتون والأحكام الخاصة بالقرآن، إضافة إلى تعليم الأطفال كيفية الوضوء والطهارة والصلاة الصحيحة.

وحبذا أن تهتم الدول الإسلامية ممثلة في وزارة الأوقاف بالكتاتيب بعدما أثبتت خلال السنوات الماضية أنها قادرة على الصمود أمام الوسائل التعليمة الحديثة، وتخريجها للآلاف من الحافظين والحافظات لكتاب الله.

ثاني عشر: الانتقادات التي وجهت للكتاتيب:

لقد أسقط المعارضون والناقدون لعمل الكتاتيب (قديمًا) وحلقات التحفيظ (حديثًا) جملة من الانتقادات أبرزها:

١ ـ النقص الملاحظ في تنوع المواد المدرسة، فالنص القرآني وحده لا يكفي لتحقيق تكوين شامل ومتوازن لدى الناشئة.

٢ ـ انفصال التعليم بالكتاتيب عن العمل المنتج والحياة المهنية والانفصام التام الموجود بين هذه الكتاتيب والتعليم النظامي الحديث الذي أثر في وجودها وصيرورتها.

٣ ـ أن القائمين عليها لا يكادون يأخذون مقابل عملهم إلا الكفاف من العيش والقليل من العوض، «كالحدية» أو «الأربعية» أو «الميسانية»

ولها أسماء مختلفة بحسب المحافظات والقرى، وهو عوض مالي قليل، يتسلمه المعلم من الطلاب يوم الأربعاء، أو ما يتقاضاه المحفظون حاليًّا من مكافآت، وكذا ما قد يحصل عليه في بعض المناسبات الدينية وهي ضئيلة، ومن بعض الهدايا البسيطة في بعض المناسبات الخاصة كحفل ختم القرآن.

٤ ـ ما يلاحظ على بعض من انبرى للتعليم بهذا الميدان، ضعف تكوينهم علميًّا ومنهجيًّا، فأكثرهم لا يزيد على حفظ نصف القرآن ـ إن حفظه ـ دون إلمام كاف باللغة العربية أو بعض العلوم الإسلامية، فضلًا عن المعارف العصرية، أو مناهج التدريس وعلوم النفس والتربية، وإذا كان المعلم قليل العلم مختل المنهج أو منعدمه فإن ذلك سينعكس ولا ريب سلبًا على أساليب التدريس ومضامينه ونتائجه.

٥ ـ أنها لا يفي بالغرض المطلوب والمرغوب في زمننا، عصر الفضائيات والشبكة العنكبوتية التي اقتحمت كل بيت أينما بعد أو قرب، وعصر تنامي الأفكار وتلاقحها، وانتشار القض والقضيض والغث والسمين من الأفكار والتوجهات التي أثرت سلبًا على كثير من خريجي الكتاتيب القرآنية، باعتبارهم من حملة القرآن الكريم.

٦ ـ المكان الذي يجلس فيه المتعلمون ساعات طويلة ليتلقوا القرآن الكريم حفظًا وفهمًا وسلوكًا، وهو مكان إن لم تتوفر فيه شروط السلامة والصحة، وكذا وسائل الترغيب في البقاء فيه لحين إدراك المرغوب، فإن الملل سيكون رفيق كل متعلم، خصوصًا والأمر لم يعد كما كان قديمًا، فالطفل يحتاج ـ إضافة إلى تلقي المعارف في صغره ـ إلى

اللعب واللهو، وهي مرحلة إن تجوزت أضرت بالمراحل التي قد تأتي بعد.

ثالث عشر: وسائل النهوض بالكتاتيب وما أشبهها من مؤسسات تحفيظ القرآن:

مما يوصى به لاستثمار ما كان من فوائد الكتاتيب أو ما شابهها من حلقات تحفيظ القرآن في المساجد حاليًّا، وتفعيل دورها:

١ ـ العناية بالمتعلمين، فهم الركيزة التي تقوم عليها التعليمية، وتشجيعهم على اقتحام هذا المجال، وذلك بتوفير المكان ووسيلة المواصلات وغيرها من ميسرات ومشجعات المشاركة.

٢ ـ الاستفادة من رغبة الآباء القوية من أجل الدفع بأبنائهم للكتاتيب، أو للحلقات سواء بالمدن أو بالقرى، واختيار الأوقات والأماكن المناسبة التي تسهم في تعزيز هذه الرغبة، والتغلب على الصعوبات بنوع من الاجتهاد والتنظيم، من حيث الوقت والمدة وغيرها.

٣ ـ إن طريقة التلقين والتحفيظ تحتاج إلى تجديد ونظر، فاللوح الخشبي أو المعدني (قديمًا) أعطت الكثير من الإتقان لأبناء الكتاتيب، وإن توقفت صلاحيتها، لكن يمكن الاستفادة من الوسائل المعاصرة، كالسبورة المتحركة، والبرامج الحديثة على أجهزة الحاسبات وغيرها وسائل تجديد وتشويق، إذ وسائل تلقي المعارف والعلوم تتطور بسرعة، فلا يكتفى بالوسائل محددة وإن أثبتت صلاحيتها واستمراريتها وصمودها، والاستعانة بكل ما أنجز من برامج معينة في الموضوع،

وأقراص ومطبوعات، وكلها متوفرة في الأسواق، وبُذل فيها جهد لا يستهان به.

٤ ـ من المهم ألا ننسى المحافظة على تلقي الرسم والكتابة القرآنية من طرف المعلم وتصحيحها والحفاظ عليها، وهو علم بدأ يقل ويندرس، بل ويهمل في واقعنا، خصوصًا عند الحفاظ عن طريق الصحف والكتب وذلك لاكتساب الخط، وتعلم الكتابة.

٥ ـ يجب أن لا يهمل ما عادته الإهمال في كتاتيبنا وحلقاتنا، وهو حسن ترتيل القرآن، وكذا تعليم قواعد التجويد في الكتاتيب والحلقات، إذ عادة ما يلاحظ على غالبية الحفاظ المتخرجين منها ضعف حسهم التجويدي، وعدم حسن إتقانهم لمخارج الحروف. ويمكن الاستعانة على كل هذا بالكثير من الوسائل السمعية والبصرية التي يستخدمها اليوم مدرسو القرآن الكريم في العالم الإسلامي، في مختلف مراحل سلك التعليم. وهذا من التجديد، وهو مما يعاب على أغلب خريجي الكتاتيب القرآنية، إذ الهدف في نظر معلميهم وفي نظر آبائهم هو الحفظ ثم الحفظ، وهذا غير كاف، إذ ينبغي تغيير الأهداف المسطرة في الكتاتيب والحلقات وعند القائمين بأمورها.

٦ ـ السعي لإدخال موضوع تدبر المحفوظ وتفسيره؛ إذ لا يعقل أن يتخرج شاب أو حافظ لكتاب الله حفظًا متقنًا دون أن يكون له علم ببعض معاني آياته.

٧ ـ الحرص على تعليم اللغة العربية مع حفظ القرآن واستخدام اللغة العربية للتخاطب والتحدث بها بين المتعلمين أنفسهم فضلًا عن

بقية المجتمع، فتقويم لسان الأطفال داخل الكتاب أو الحلقات أمر مهم، والحفظ يمنح بعض هذا، ولكن لا يمنحه كاملًا، لهذا يبقى دور المعلم أساسي في هذا الأمر.

٨ ـ الاستفادة من منهج الكتاب قديمًا في التدرج في التعليم وهذا منهج فريد تميزت به شريعة الرحمن، وخصوصًا تحفيظ القرآن، فإملاؤه على المتعلمين يكون بحسب معرفة مداركهم وقوة حفظهم ومدى استيعابهم، كما أن التدرج في التعليم له ما له من إيجابيات، بحيث يستطيع المعلم اكتشاف قدرات طلابه، فيميز بين المتفوق منهم والبسيط في الفهم، فيبني على ذلك حلقته وتوجيهاته.

٩ ـ النظر بعين الشريعة في موضوع التربية العقابية وإن كان زمن الضرب قد ولى، واقتحم عليه المجال زمن الحوار والإفهام والتواصل بشتى أنواعه، كما حل محله زمن الترغيب والمسابقات والمباريات، فيجب أيضًا على معلمي الكتاتيب، والحلقات كما يبدعون في وسائل التعليم وتحبيب المواد المدرسة، أن يبدعوا في وسائل العقاب الإيجابية، التي تثمر التحفيز والرغبة والمسارعة نحو تجاوز الأخطاء والتقدم على الأقران، وذلك ضمن ما يعنيه الحزم من غير فضاضة والرفق دون هزل.

١٠ ـ أن يكون اختيار معلمي الكتاتيب، والحلقات اختيارًا دقيقًا، حيث يكونوا أصحاب أهلية علمية، وخبرة عملية، وهمة وبصيرة دعوية، ليكون تأثيرهم أكثر وأنفع.

١١ ـ عقد دورات تدريبية لمدرسي الكتاتيب، والحلقات يحضرها

ويؤطرها المختصون، وتكون تحت عناية ونظر المعنيين والمسؤولين ومشاركة أولياء الأمور لمن يرغب. على أن تشمل هذه البرامج طرائق التحفيظ: من أجل النظر فيها، وتجديد ما يمكن تجديده فيها، وتجنب ما ينبغي تجنبه فيها.

١٢ ـ العمل على دراسة للاستفادة من خريجي الكتاتيب وحلقات التحفيظ القرآنية، والتنسيق بين الكتاتيب وحلقات تحفيظ القرآن والمدارس والمعاهد القرآنية وكليات القرآن التي تهتم بهذه المواهب وتنميها؛ لأنها التنمية البشرية التي نسعى إليها، والإنسان هو محورها ونواتها وأصلها وقاعدتها، فبدون الإنسان الصالح، لا تبنى تنمية ولا حضارة، ولا يشيد صرح.

بهذا نستطيع أن نبني أمتنا من خلال بناء أبنائنا داخل هذه المحاضن المؤثرة، وفي آثارها الإيجابية، وبدون ربط المتعلمين بالعمل بما تعلموه، سيفرز لنا هذا التعليم أفرادًا يحفظون أمورًا يخالفونها تطبيقًا وممارسةً، وأوضحها قلة اكتراثهم بالشعائر التعبدية والسلوكية[(١)].

---

(١) للاستزادة من الموضوع ينظر:

١ ـ دراسة (بارى عثمان ١٩٨٨م) وهي بعنوان «أسس التعليم في الكتاتيب ودورها في بناء الشخصية المسلمة في فوتا جالون» (جمهورية غينيا) لبارى عثمان، (ماجستير)، إشراف، أحمد عمر عبيد الله، ١٩٩٨م.

٢ ـ (دور الوقف في تعزيز التقدم المعرفي) ورقة عمل في المؤتمر الثالث للأوقاف بالمملكة العربية السعودية بعنوان المحور الرابع: وقف الكتاتيب ودوره في تعزيز التقدم الثقافي والعلمي، للأستاذ الدكتور حسن عبد الغني أبو غده.

٣ ـ تسجيل توثيقي لطريقة حفظ المغاربة للقرآن الكريم، للأستاذ الدكتور عبد الهادي حميتو، وأدبيات المحضرة، والتقاليد المتبعة في الكتاتيب المغربية.

الخاتمة

توصل الباحث إلى بعض الأمور المهمة ومنها:

١ ـ الكتاتيب (جمع كُتَّاب بضم الكاف وتشديد التاء) هي مدرسة القرآن ومعلمة الأجيال، كانت ولا تزال من أفضل وأهم المؤسسات التعليمية التي عنيت بتعليم وتحفيظ القرآن الكريم عبر أجيال متوالية، حافظت على اللغة العربية واستقامة اللسان العربي، وكانت بمثابة الدروع التي حافظت على تراث الأمة في مواجهة مدارس الإرساليات التي غزت عالمنا العربي منذ بدايات القرن التاسع عشر.

٢ ـ أن انطلاق العمل بفكرة إنشاء الكتاتيب في وقت مبكِّر في تاريخ الإسلام، وذلك في السنة الثانية من الهجرة النبوية ونشوء الدولة الإسلامية، ولم يقتصر هذا التعليم الابتدائي الأساسي في الكتاتيب على الغلمان الصغار، بل اتسعت هذه الفكرة لتشمل الكبار من الرجال الأميين.

٣ ـ اعتمد التعليم في مصر بعد الفتح العربي الإسلامي عام ٦٤٠هـ، على نظام الكتاتيب ومدارس المساجد، وكان التعليم الذي يتم في الكتاتيب والمساجد تعليمًا شعبيًّا قام به الأفراد الذين أنشؤوا الكتاتيب لقاء رسوم زهيدة.

٤ ـ أن سن ذهاب الصبي إلى الكتَّاب كان يتجه نحو التبكير في التعلم بالكتَّاب، فمنذ السنة الخامسة أو السادسة وغالبًا في الأرياف قبل ذلك، ولم تكن مهام الكتاتيب تربوية أو تعليمية فقط، بل كان لها دور اجتماعي مهم جدًّا، فلم يسمح المسلمون أن تقوم عزلة وحواجز بين الكتَّاب والمجتمع.

٥ ـ تنوعت أدوار الكتَّاب في القيام بالوظائف المتنوعة، وكان أبرزها تحفيظ القرآن وتعليم مبادئ وأسس الدين الإسلامي، وضمان اكتساب المجتمع الحد الأدنى من الثقافة العامة والموحدة والتي لها تأثير مباشر على بقاء واستمرارية مختلف النظم الاجتماعية الأصلية، تعليم اللغة العربية وحسن الخط، تعليم مبادئ الحساب الأولية.

٦ ـ عملت الكتاتيب على تحصين المجتمع من آثار الاستعمار فكانت رافدًا قويًّا لمعاهد الأزهر.

٧ ـ جمع معلم الكتَّاب مهامًّا متعددة بيده، ومهمته تشبه إلى حد ما مهمة المعلم المنفرد (حاليًّا)، لكنه يتصرف ضمن لوائح وإرشادات معينة لا يحق له الخروج عنها.

٨ ـ تنوعت أساليب وطرائق التدريس في الكتَّاب، وما زال التربويون في العصر الحديث ينهلون من فوائدها.

٩ ـ اختلفت مساحة الكتاتيب من كُتاب إلى آخر، كما اختلف تنظيم التعليم في الكتَّاب، فقديمًا قام الفقهاء بمحاولات تنظيمه قدر الإمكان، وأخضعوا الكتاتيب لشروط موحدة، بالإضافة إلى ما كانت تقوم به الدولة (أحيانًا) من الإشراف عليها.

١٠ ـ لم يكن التعليم مختصًّا بالصبيان الذكور دون الإناث، ـ وإن كان للإناث أقل بكثير من الصبيان ـ، بل إنه كان شاملًا للجنسين، لا سيما عند الأغنياء، وأصحاب المناصب العالية والعلماء.

١١ ـ لم يسمح المسلمون أن تقوم عزلة وحواجز بين الكتَّاب والمجتمع، ولذلك فكان يتفاعل مع مجتمعه، ويشارك في حياته اليومية، كما اهتم الفقهاء والمربون بصحة الصبيان في الكتَّاب، فنصحوا بعزل الصبي المريض عن رفاقه حتى لا ينتشر المرض بينهم.

١٢ ـ وجهت للكتاتيب الكثير من المخططات الخبيثة المنظمة للقضاء على الآثار الإيجابية لها حتى أصبحت مؤسسة (الكتَّاب) مهددة بالانهيار التام بل والانقراض.

١٣ ـ أسقط المعارضون والناقدون لعمل الكتاتيب (قديمًا) وحلقات التحفيظ (حديثًا) جملة من الانتقادات منها: النقص الملاحظ في تنوع المواد المدرسة، فالنص القرآني وحده لا يكفي لتحقيق تكوين شامل ومتوازن لدى الناشئة، وانفصال التعليم بالكتاتيب عن العمل المنتج والحياة المهنية والانفصام التام الموجود بين هذه الكتاتيب والتعليم النظامي الحديث الذي أثر في وجودها وصيرورتها.

١٤ ـ يوصي الباحث بضرورة استثمار ما كان من فوائد الكتاتيب أو ما شابهها من حلقات تحفيظ القرآن في المساجد حاليًّا، وتفعيل دورها عن طريق عدة وسائل ذكرها في البند (١٤) من البحث من أبرزها:

* العناية بالمتعلمين فهم الركيزة التي تقوم عليها التعليمية،

فتشجيعهم على اقتحام هذا المجال، فإذا تم توفير المكان ووسيلة المواصلات وغيرها من ميسرات ومشجعات المشاركة.

* الاستفادة من رغبة الآباء القوية من أجل الدفع بأبنائهم للكتاتيب، أو للحلقات سواء بالمدن أو بالقرى، واختيار الأوقات والأماكن المناسبة التي تسهم في تعزيز هذه الرغبة، والتغلب على الصعوبات بنوع من الاجتهاد والتنظيم، من حيث الوقت والمدة وغيرها.

والحمد لله رب العالمين..

المراجع

١ ـ الآداب الشرعية (ت: الأرناؤوط) عبد الله محمد بن مفلح المقدسي تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عمر القيام، مؤسسة الرسالة، ١٤١٩ ـ ١٩٩٩.

٢ ـ آداب المعلمين. بن سحنون، محمد: الجزائر، مطبعة ش. و. ن. ت، ١٩٧٢.

٣ ـ أزمة التعليم المعاصر، زغلول، راغب محمد النجار، نظرة إسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت. ط١، ١٩٨٠،

٤ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ـ لبنان ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥

٥ ـ الأعلام خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٦ ـ البداية والنهاية أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي طبعة جديدة محققة/ الطبعة الاولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م.

٧ ـ تاريخ التربية الإسلامية محمد شعبان أيوب من موقع مكتبة المدينة ومكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦م.

٨ ـ تاريخ التربية بتونس. العبيدي التوزري، إبراهيم، تونس، الشركة الوطنية للنشر ـ ب، ت ـ.

٩ ـ التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، محمد عَبْد الحَيّ بن عبد الكبير ابن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبد الحي الكتاني، تحقيق: عبد الله الخالدي: دار الأرقم ـ بيروت الطبعة: الثانية. د.ت.

١٠ ـ التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، حسن عبد الله، دار الفكر العربين جامعة ميتشيغان، ١٩٧٨م.

١١ ـ التربية الإسلامية، أحمد شلبي، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٥٤.

١٢ ـ التربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٧.

١٣ ـ التربية ومتطلباتها. بوفلجة، غياب: الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٨٤.

١٤ ـ التربية والتعليم في الأندلس، إبراهيم علي العكش، دار عمار للنشر والتوزيع ١٩٨٦م.

١٥ ـ التعليم القومي والشخصية الوطنية. تركي، رابح: الجزائر، مطبعة الشركة الوطنية و التوزيع، ط١، ١٩٨١.

١٦ ـ التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، عبد الغني محمود عبد العاطي: القاهرة، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع ١٩٧٥م.

١٧ ـ التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول، خطاب عطية علي: دار الفكر العربي، ١٩٤٧.

١٨ ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز: ترجمة: محمد أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٥، د.ت.

١٩ ـ الحضارة الإسلامية، علي بن نايف الشحود، دار الخير، بيروت، ١٤١٤هـ.

٢٠ ـ دراسة التعلم في الصغر، للدكتور عبدالباسط متولي أستاذ الصحة النفسية بجامعة الزقازيق، مجلة الجامعة، ٢٠١١م.

٢١ ـ دور الكتَّاب والمساجد عند المسلمين، محمد منير سعد الدين: دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٢٢ ـ دور الكتاتيب في حفظ الهوية الثقافية لأبنائنا، د.ليلى بيومي، موقع المسلم، (مقال).

٢٣ ـ رحلة ابن بطوطة، ابن بطوطة: طبعه مصر سنة ١٩٠٤.

٢٤ ـ رحلة ابن جبير، ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين، بيروت للطباعة والنشر (موافق للمطبوع وهو مذيل بالحواشي)، د.ت.

٢٥ ـ الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القابسي، بتحقيق وترجمة أحمد خالد الشركة التونسية للتوزيع الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

٢٦ ـ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الشافعي أبو شامة: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ ـ ٢٠٠٢.

٢٧ ـ الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، رابح، تركي: الجزائر، الطبعة الثالثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٨١.

٢٨ ـ صحة الطفل، للدكتور عبد الباسط متولي (أستاذ الصحة النفسية بكلية التربية جامعة الزقازيق)، مجلة الكلية.

٢٩ ـ طرق إبداعية في حفظ القرآن، د. يحيى الغوثاني، محاضرة مسجلة على شريط ينتجه «المركز الإسلامي العالمي للإنتاج والتوزيع»، بني ياس، أبو ظبي.

٣٠ ـ الكامل، للمبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، تحقيق عبد العزيز الميمني، طبعة دار الكتب المصرية، ط٢ ١٩٩٥م.

٣١ ـ كتاب الاملاء و الاستملاء. السمعاني: حرره ماركس فايز، ١٩٥٢.

٣٢ ـ الكتاتيب القرآنية بندرومة من سنة ١٩٠٠ إلى ١٩٧٧ ـ بن أحمد التيجاني، عبد الرحمن: الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٣.

٣٣ ـ الكتاتيب ودورها في التراث، د. راغب السرجاني، موقع قصة الإسلام، http://islamstory.com/ar

٣٤ ـ الكتاتيب.. دور خالد في حفظ الهوية، عماد عجوة، جامعة القدس المفتوحة، غزة ٢٠١١م.

٣٥ ـ الكتاتيب، د. سيد محروس، مجلة الأزهر، ١٣٥١/ رجب/ ١٤٢٦هـ.

٣٦ ـ كيف نهتم بالقرآن، د. محمد يحيى، كلية القرآن، طنطا، مجلة الدعوة، العدد ١٤١٩.

٣٧ ـ لسان العرب، لابن منظور، دار صادر في بيروت سنة ١٩٦٨.

٣٨ ـ المدخل، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج دار التراث، د.ت.

٣٩ ـ مدرستي الأولى، مبروك رمضان، مجلة الأسرة ٩٧٦/ ١٤٢٨هـ.

٤٠ ـ مراسيل أبي داود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني أبو داود،

تحقيق: عبد العزيز عز الدين السيروان؛ حالة الفهرسة: غير مفهرس؛ دار القلم؛ سنة النشر: ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦.

٤١ ـ معالم القربة في طلب الحسبة، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد بن الأخوة، القرشي، ضياء الدين، دار الفنون «كمبردج»، د.ت.

٤٢ ـ المعجم الوسيط: موافق للمطبوع، إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر، دار الدعوة، ٢٠٠٤م.

٤٣ ـ المقدمة. ابن خلدون: مصر، مطبعة محمد عاطف، طبعه باريس، ١٨٥٨م.

٤٤ ـ من روائع حضارتنا، مصطفى بن حسني السباعي، دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٢٠هـ.

٤٥ ـ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م.

٤٦ ـ المؤسسات التربوية القديمة بالجلفة، زائد، مصطفى: الجزائر، مجلة ثقافية العدد ٩٣، شعبان، رمضان ١٤٠٦، ماي ـ جوان ١٩٨٦.

٤٧ ـ نشأة التعليم الحديث في مصر، أحمد عزت عبدالكريم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٣٨.

٤٨ ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة عبد الرحمن بن نصر الشيرازي، بيروت، دار الثقافة، تحقيق السيد الباز العريني، ١٤٠١هـ.

٤٩ ـ الوافي بالوفيات صلاح الدين خليل بن أيبك، دار إحياء التراث العربي؛ ٢٠٠٠م.